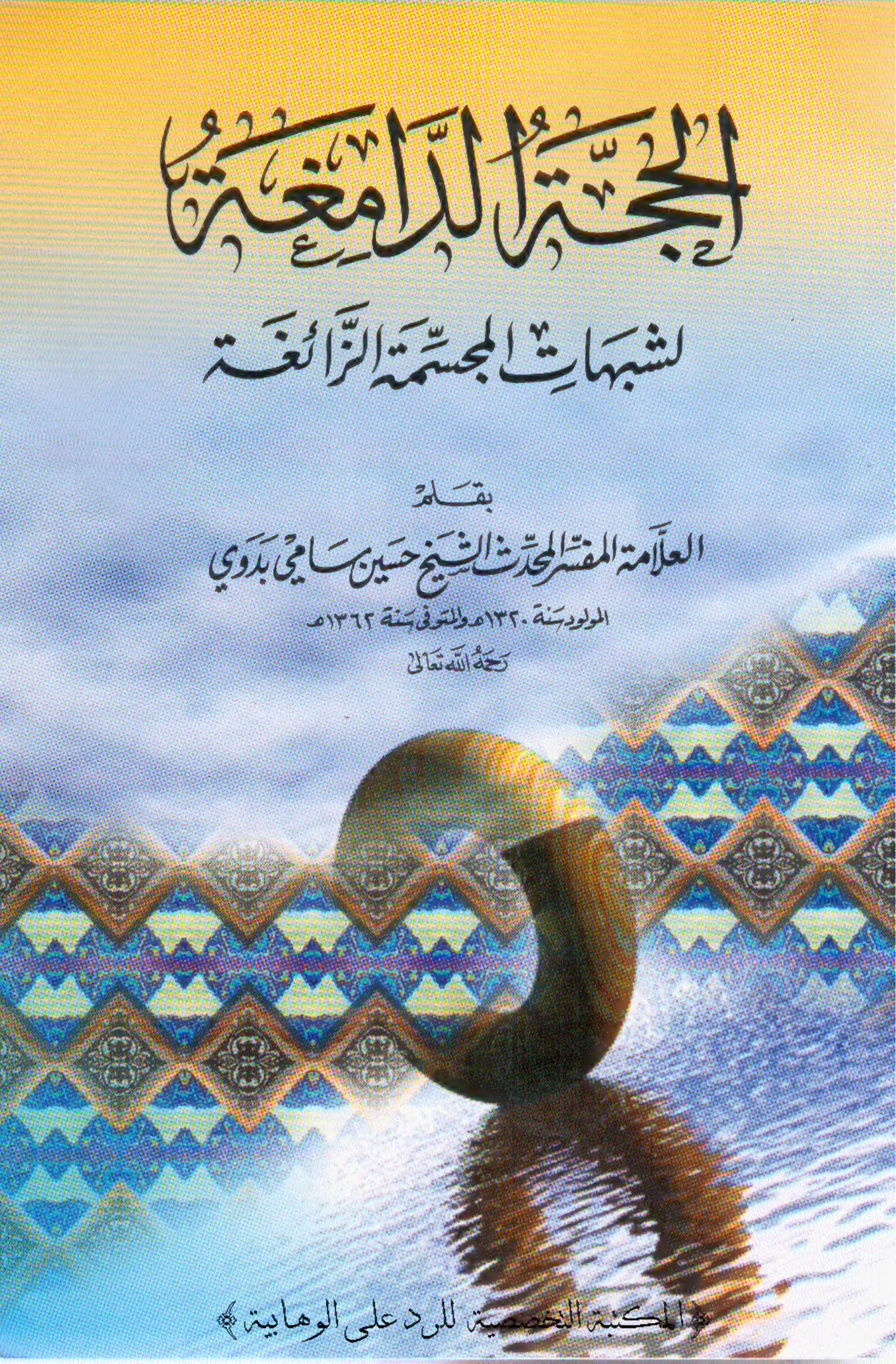
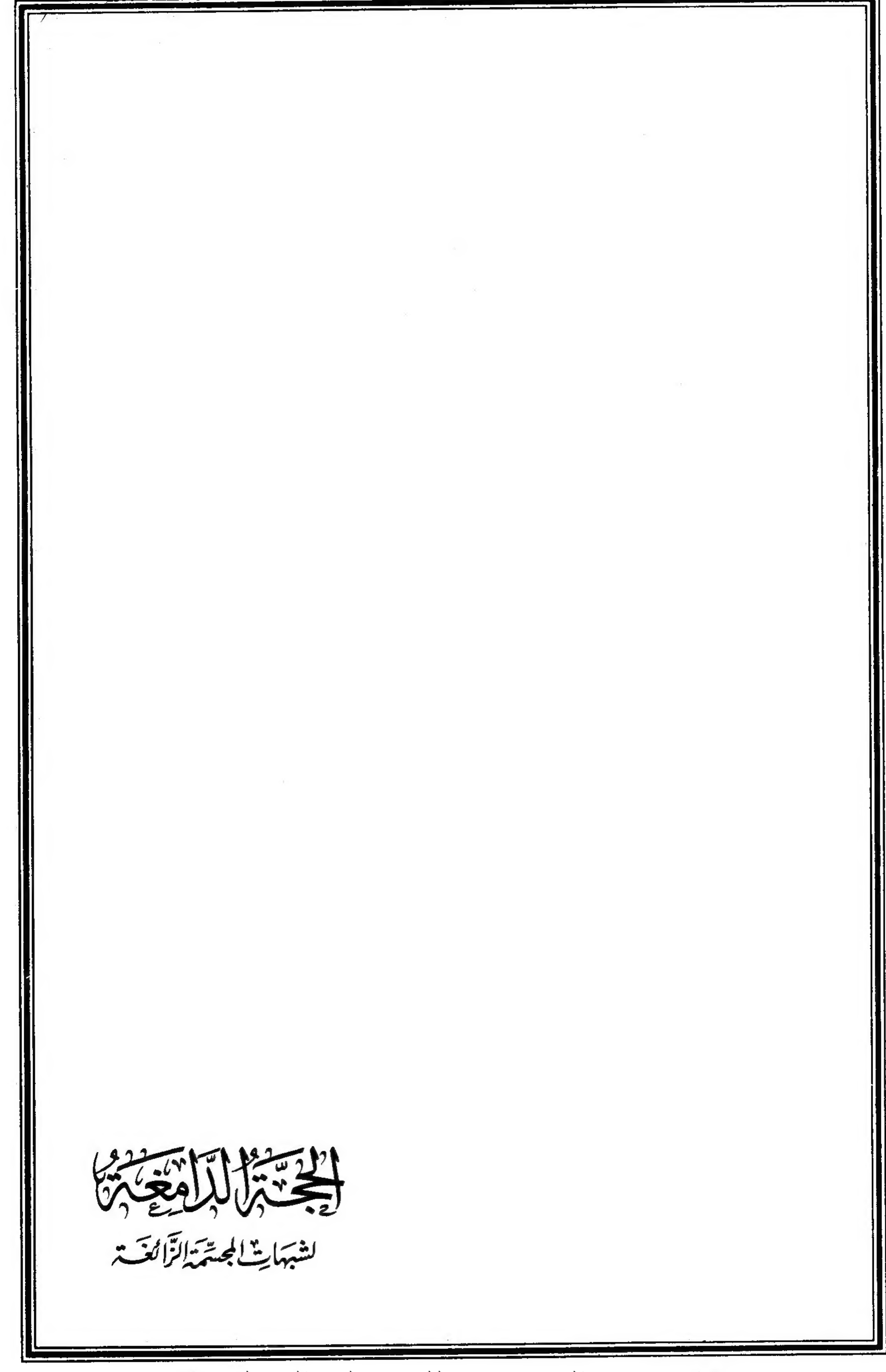

الحجة الدامغة
لشبهات المجسمة الزائغة
بقلم
العلامة المفسر المحدث الشيخ حسين سامي بدوي
المولود سنة ١٣٢٠هـ والمتوفى سنة ١٣٦٢هـ
رحمه الله تعالى
المكتبة التخصصية للرد على الوهابية


الحجة الدامغة
لشبهات المجسمة الزائغة

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الحجة الدامغة

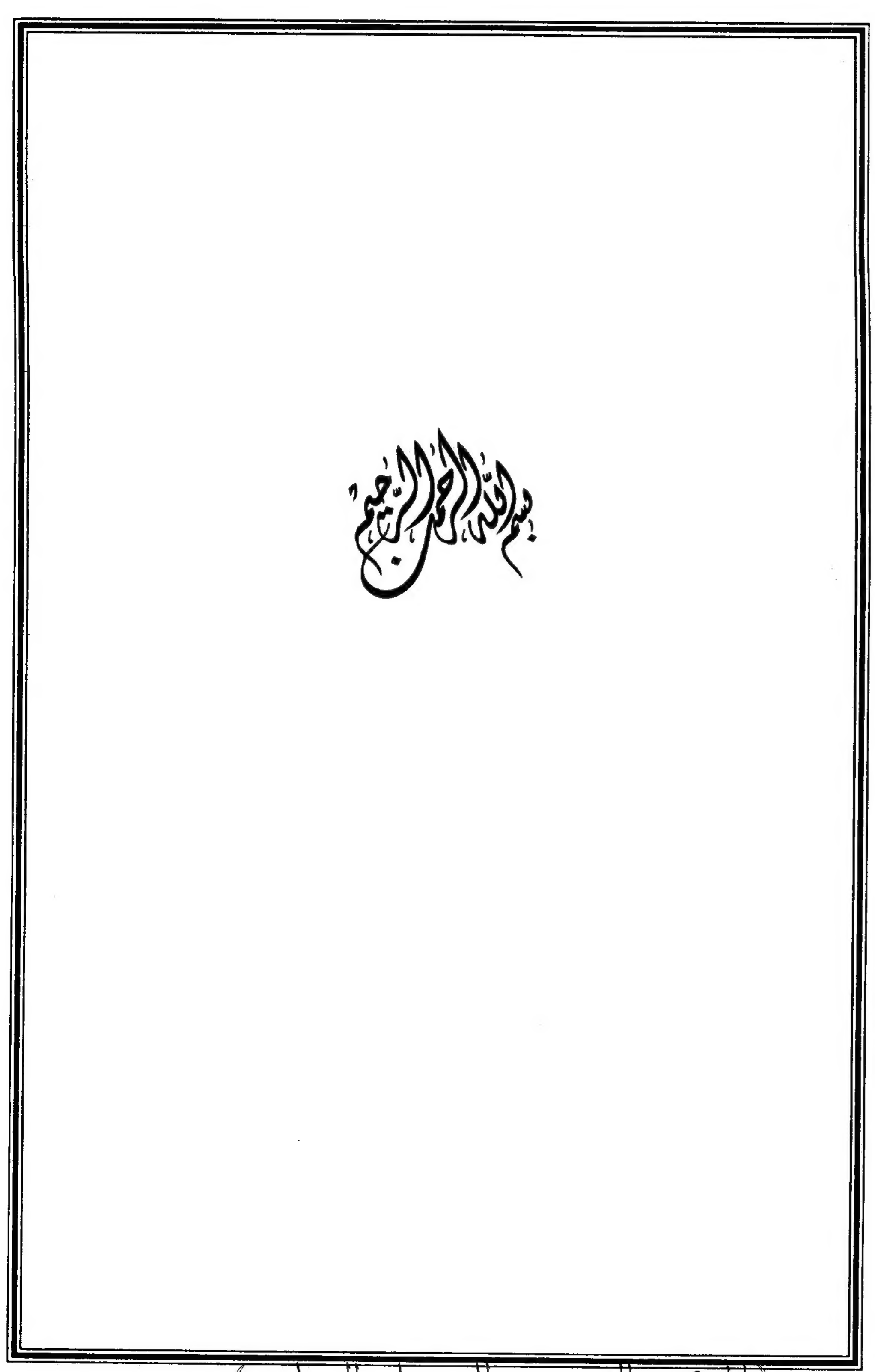
لشبهات المجسمة الزائغة

بقلم

العلامة المفسر المحدث الشيخ حسين سامي بدوي

المولود سنة ١٣٢٠هـ والمتوفى سنة ١٣٦٢هـ

رحمه الله تعالى


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم سيدنا محمد وآله، ورضي الله عن أصحابه والتابعين الذين حملوا لواء التنزيه، وردوا على أهل التشبيه، ووقفوا في وجه كل من وقع في التجسيم، وحاد عن الصراط المستقيم.

وبعد:

فهذه رسالة جديدة، لعالم أزهريّ كبير، هو الشيخ حسين سامي بدوي المتوفى سنة **١٣٦٢**هـ رحمه الله تعالى، سبق أن نُشِرت في بعض المجلات الإسلامية الذائعة الصِّيتُ. أحببنا إحياءها ونشرها تعميماً لنفعها، وإحياءً لأثر علمي فريد من عالم من كبار العلماء الأزهريين.

وهذه الرسالة حلقة من سلسلة متتابعة في الذَّوْد عن حياض الدين، والرد على شبه المشبِّهين، وتجسيم المجسمين.

وكلُّنا أملٌ ورجاء أن تلقى هذه الرسالة ـ وغيرها مما عزمنا على نشره ـ قبولًا وانتشاراً، في وقت سكت فيه أهل الحق عن الجهر به، خوفاً وتملقاً ومداهنة وحرصاً على الوظائف والمناصب، وحضور المؤتمرات، والمشاركة في الندوات!!

وقد كانت هذه الرسالة رداً على الدعاة المتسبين إلى السلف بزعمهم من (أنصار السنة).

وقد تصدى لهؤلاء كبار علماء الأزهر الذين عُرفوا بالعلم العميق، والفهم الواسع الدقيق لكتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ.

والأمل معقود على علماء الأزهر الثقات العدول أن ينفوا عن هذا العلم تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، ومزاعم المبطلين، وشبهات المشبهين.

ونسأل الله سبحانه أن ينفع بهذه الرسالة القيّمة، وأن يجزي مؤلفها خير الجزاء، ويغدق على قبره شآبيب الرحمة والمغفرة والرضوان.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وسلم.

الناشر

ترجمة المؤلف
حسين سامي بدوي

هو العلامة المفسِّر المحدِّث حسين سامي بدوي الشافعي، ووالده الشيخ علي بدوي.

ولد - رحمه الله تعالى - في حدود سنة ١٣٢٠هـ، وتوفي سنة ١٣٦٢هـ = ١٩٤٣م وهو في العقد الرابع من عمره.

تخرّج من الأزهر الشريف، ونال الدكتوراه من التخصُّص القديم، واشتغل بالتدريس في معهد القاهرة.

وقد اشتغل بالمحاماة الشرعية مدة قبل التدريس، وكان من المشتغلين بتحقيق المسائل العلمية والدينية، وله مقالات دينية قيّمة في كثير من المجلات الإسلامية والصحف كالهداية، والإسلام، والتقوى، والشفق، ومكارم الأخلاق، والنذير، والشبان المسلمين، ومجلة نشر الفضائل والآداب الإسلامية التي تولى رئاسة تحريرها.

وله أثر بارز في الجماعات الإسلامية التي تطوَّع في خدمتها والعمل على تحقيق أهدافها.

وكان - رحمه الله تعالى - يحاضر بانتظام في الموضوعات الدينية بقاعة المحاضرات في جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالجيزة.

من مؤلفاته المطبوعة:

١ ـ قصة سيدنا داود.

٢ ـ هداية القرآن.

٣ ـ حقوق المرأة وواجباتها.

إلى مئات من المقالات العلمية الممتعة التي لو جمعت لخرجت في أكثر من ثلاث مجلدات[1].

(١) «الأعلام الشرقية» للأستاذ زكي مجاهد ١ : ٣٠٤.



١ ـ المجسمة والمشبهة[1]

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ ﴾

تمهيد:

لم يكن أحدٌ من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين يشتبه في صفات الله تعالى، ولا في كونه تعالى مخالفاً للحوادث في ذاته وصفاته، فكانوا يؤمنون بتنزهه ـ تبارك اسمه وتعالت صفاته ـ عن صفاتِ خلقه، ويعتقدون أن كل ما يتخيّله الذهن أو يصوِّره الوهم فإن الله عز وجل مخالف له: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

وقد حملهم الورع والاحتياط للدين على الإمساك عن الخوض في معاني الآيات المتشابهة التي أُسند فيها إلى الله تعالى ما يوهم ظاهره التشبيه عند من لا يفهمون مقاصد القرآن الكريم، ولا أسرار التراكيب العربية، ومناحيها المختلفة في التعبير عن الأغراض الدقيقة، حذراً من أن يكونوا ممن يتبعون ما تشابه من الكتاب الذين حذَّر منهم رسول الله ﷺ، ونصَّ الله تعالى في كتابه على أن في قلوبهم زيغاً، فكانوا يؤمنون بأنَّ النصَّ القرآني نزل من عند الله ولكنهم لا يقطعون في تأويله بمعنى، بل يفوِّضون

(١) السنة الثامنة، العدد ٢٥ سنة ١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م.

علم حقيقة معناه والمراد به إلى الله تعالى مع اعتقادهم تنزهه تعالى عن مشابهة خلقه، ولا يخوضون في تأويله لأن الله تعالى لم يكلفنا إلا بالإيمان بهذه النصوص، وكان ذلك عندهم هو الرسوخ في العلم، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي المحكم والمتشابه كلاهما أوحي إلى النبي ﷺ من عند الله، فنؤمن بمحكمه ونعمل به لأنه أمُّ الكتاب وأصله الذي يرجع إليه في الاعتقاد والعمل، ونؤمن بمتشابهه ونمسك عن الخوض في تأويله حذراً من الزيغ والزلل مع اعتقاد أنه متفق مع الأصل المحكم فيما يدل عليه من تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه، لأنَّ القرآن الكريم يصدِّق بعضه بعضاً، ولا ينقض بعضه بعضاً آخر منه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

فكانت عقيدتهم تنزيهية خالصة من شوائب التجسيم والتشبيه الذي ابتليت به الأمة فيما بعد على أيدي طائفة من غلاة الشيعة والروافض والكرامية وغيرهم من أرباب الأهواء الخبيثي الاعتقاد، وكان القرآن الكريم في نظرهم وحدة يصدق بعضها بعضاً، ويدل بجملته على ما أراد الله من عباده منه، وكانوا لقوة إيمانهم، وإشراق بصائرهم، وطهارة قلوبهم، وحِدَّةِ أذهانهم، ومعرفتهم بأسرار لغتهم وأساليب كتاب ربهم أسمى من أن يتطرَّق إلى قلوبهم اعتقاد باطل ينقضه القرآن الكريم جملة وتفصيلًا.

وإنك لتعلم مقدار احتياطهم لعقيدتهم ونفرتهم من البحث في معاني المتشابهات وعدِّهم ذلك من باب الفضول العلمي الذي لم يكلفنا الله تعالى به، تعلم ذلك من الخطبة التي خطبها عليّ

كرّم الله وجهه وقد سُئِلَ أن يصف الله تعالى ـ حتى كأنه يرى عياناً ـ فقال رضي الله عنه، بعد أن حمد الله وأثنى عليه وأشاد بنعمه على خلقه: «فانظر أيها السائل، فما دلَّكَ القرآنُ عليه من صفته فائتمَّ به، واستضئ بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي ﷺ وأئمة الهدى أثره، فكِلْ عِلمَهُ إلى الله سبحانه، فإن ذلك منتهى حقِّ الله عليك، واعلم أنَّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقتصر على ذلك، ولا تقدر عظمة الله على قدر عقلك فتكون من الهالكين» إلى أن قال: «وأشهد أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك، وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ندّ لك، وكأنه لم يسمع تبرأ التابعين من المتبوعين إذ يقول: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم، ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم، وجزؤوك تجزئة المجسمات بخواطرهم، وقدروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم، وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عَدَل بك، والعادلُ بك كاذب بما تنزَّلت به محكمات آياتك، ونطقت عنه شواهد حجج بيناتك، وإنك أنت الله الذي لم تتناه في العقول فتكون في مهب فكرها مكيفاً، ولا في رويات خواطرها فتكون محدوداً مصرفاً».

تمثل لنا هذه الخطبة عقيدة التنزيه السلفية التي كان عليها المسلمون في ذلك العصر الذهبي قبل أن تنشأ بدع الكرامية وغلاة المشبهة والمجسمة، فكان المسلمون إذ ذاك على منهاج واحد في الاعتقاد، يؤمنون بالله بدون تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل، ويعتقدون ما تدل عليه المحكمات، ويمسكون عن الخوض في المتشابهات إمساك الورِعِ المستبرئِ لدينه من الشبه والزيغ، وكانت دلائل التنزيه والنصوص المحكمة تمنعهم من أن يتوهموا من الآيات المتشابهات تشبيهَ الله بخلقه، لذلك ما كانوا يحملون ألفاظها على معانيها المعروفة في عالم الخلق ـ كما فعل الكرامية ـ كيف وإن بعض القرائن لفظية أو معنوية تمنع في لغتهم حمل اللفظ على معناه الحقيقي المتعارف، فكيف إذا كانت الأدلة الصريحة القاطعة تحيله؟

يؤيد ما تقدم ـ وهو أنَّ مذهب السلف تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه ـ ما رواه اللالكائي الحافظ في كتاب «السنة» من طريق قرة بن خالد عن الحسن البصري عن أمه خَيْرة مولاة أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾: «الاستواء معلوم[1]، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، والبحث عنه كفر»، وهذا له حكم المرفوع لأنه مثله لا يقال من قبل الرأي.

وفي لفظ آخر قالت: «الكيف غير معقول، والاستواء غير

(١) أي معلوم وروده وذكره في كتاب الله تعالى، أما كيفيته فمجهولة، وهذا هو المعنى الصحيح الذي يستقيم مع قولها رضي الله عنها: «والكيف مجهول» ومن ذلك يعلم فساد قول المجسمة والحشوية.

مجهول[1]، والإقرار به من قبل الإيمان، والجحود به كفر».

فأنت ترى أن أم المؤمنين رضي الله عنها تقول بصريح العبارة إن كيفية استواء الله تعالى على عرشه مجهولة لا يمكن أن تتطاول العقول إلى معرفتها، وإن السؤال عنها بدعة لم تكن معروفة في زمن النبي ﷺ ولا عند أحد من الصحابة الكرام رضي الله عنهم إذ كانوا جميعاً يعتقدون أن الله منزَّهٌ عن مشابهة خلقه، ويكتفون من أمثال هذه النصوص بما تدل عليه إجمالًا من عظمة الله وقهره لخلقه. وتصريحها بأن الكيفية مجهولة أنفذ سهم في نحور المجسّمة الذين خالفوا المعقول والمنقول وجانبوا الحق والصواب في تفسيرهم الاستواء بالاستقرار والجلوس تعالى الله عما يقول الأفّاكون علواً كبيراً، ولعل أمَّ سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها بلغتها شبهة عن بعض التابعين في فهم أمثال هذه النصوص فأرادت أن تقرر قاعدة للمسلمين يسيرون على ضوئها كلما أشكل عليهم فهم آية من الآيات المتشابهة، وهي أن يؤمنوا بالنص كما ورد، وأن يفوِّضوا علم حقيقة معناه إلى علام الغيوب، وبذلك يستبرئون من الشبه المضلة، ولا يدخلون في عداد الفرق الزائغة.

ولقد كان الأئمة الأعلام من فقهاء هذه الأمة وكبار محدثيها كمالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق وغيرهم على هذا النهج في الإيمان بالمتشابه مع التنزيه والتفويض وعدم القطع بمعنى هو مراد الله تعالى، والمأثور من أقوالهم يدل دلالة صريحة

---

(١) لوروده في القرآن الكريم على المعنى الذي يناسب قدسية الله تعالى وكماله.

على أنهم كانوا جميعاً على عقيدة التنزيه، فقد أخرج اللالكائي في «السنة» والبيهقي في «الأسماء والصفات» أن ربيعة (شيخ الإمام مالك) سُئِلَ عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى؟ فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق».

وأخرجا أن مالكاً (إمام دار الهجرة رضي الله عنه) سئل هذا السؤال أيضاً فوجد وجداً شديداً وأخذته الرحضاء، ولما سُري عنه قال للسائل: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً»، فأمر به أن يخرج، وفي رواية أنه قال: «الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال له كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة».

وأخرج البيهقي في «الأسماء والصفات» عن سفيان بن عيينة قال: «ما وصف الله تعالى به نفسه فتفسيره قراءته ليس لأحد أن يفسره إلا الله تبارك وتعالى أو رسله عليهم الصلاة والسلام»، ومراده أن يفوِّض الإنسان علم ما جهله من نصوص القرآن التي يوهم ظاهرها ما يتنافى مع التنزيه الذي تدل عليه الآيات المحكمات إلى الله تعالى، ومن ذلك يتَّضح لك كذب الأدعياء من المجسمة الذين ادعوا أن نحلتهم الباطلة هي التي كان عليها السلف الصالح، والسلف رضي الله عنهم براء مما يفترون.

مما تقدم يتبين لك أن السلف الصالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين وأئمة الفقهاء والمحدثين ما كانوا يأخذون بظواهر النصوص المتشابهة كما يفعل المجسِّمة، وإنما كانوا

يفوِّضون معناها إلى علام الغيوب، وهذا تأويلٌ إجمالي لأن التفويض معناه أن ظواهر الآيات ليست مرادة، وإنما أمسكوا عن التأويل التفصيلي ورعاً منهم واحتياطاً للدين، وهم بهذا التأويل الإجمالي يوافقون ما ذهب إليه المتكلمون من أهل السنة والجماعة والمتأخرون من علماء الأمة على وجوب صرف الآيات المتشابهة عن ظواهرها، وعلى تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه، وليس بين الفريقين فرق إلا أن المتكلمين والمتأخرين أوَّلوا أمثال هذه النصوص تأويلًا تفصيلياً بحسب ما تدل عليه الأساليب العربية وترشد إليه القرائن، أي أنهم سلَّطوا المحكمات على المتشابهات وأجروا الجميع على نَسَق واحد في الدلالة على تنزيهِ اللَّهِ تعالى وخرَّجوا المتشابهات على أنها مجازات أو كنايات عن معان تليق بكمال الله تعالى وقدسيته، وأما السلف فأمسكوا عن ذلك مع علمهم بأن القرآن الكريم جاء على أساليب العرب ومناحيها في بيانها مبالغة منهم في الورع والاحتياط.

ظهور البدع والأهواء:

انقضى عصر الصحابة الكرام رضي الله عنهم، والمسلمون على خير ما ينبغي أن يكونوا عليه اعتقاداً وعلماً وعملًا وتقوى وزهداً وورعاً واحتياطاً للدين، ونهج التابعون نهجهم، واستنُّوا بسنتهم، واتبعوهم بإحسان في خير ما كانوا عليه من الهدى والرشاد، فلما كان آخر عهد بني أمية وأوائل عصر بني العباس كان الإسلام قد اتَّسعت رقعته، وامتد رواقه، وانبسطَ سلطانُه على كثيرٍ من الأمم التي كانت قبل الاهتداء به تتخبط في دياجير الضلال، ودخل في الإسلام طوائف من أجناس مختلفة كالفرس

والروم واليهود وغيرهم يحملون في أدمغتهم وقلوبهم أثارة مما كانوا عليه من معتقدات باطلة، ولم يكن أكثرهم يحسنون فهم لغة القرآن الكريم، وكان فيهم من دخل في الإسلام رغبة في الكيد له، وإفساده على أهله من طريق الدس والكذب ووضع الروايات الباطلة بعد أن عجزوا عن مقاومته بالقوة، فلا جرم أن نجم فيهم كثير من البدع والأهواء في الاعتقاد كان منشؤها أموراً شتى، منها التباس معتقداتهم القديمة بمعتقداتهم الجديدة، والجهل بهدي السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم، والجهل بأسرار لغة القرآن ومناحيها المختلفة في التعبير عن المقاصد الدقيقة.

ـ ومنها ما كان في قلوب بعضهم من الضغينة على الإسلام وحب الكيد له، وأغلب ظنّي أن اليهود ما دخلوا في الإسلام إلا لذلك الغرض، ولذلك كثر من مسلمتهم وضع الحديث كذباً على رسول الله ﷺ وترويج مذهب التجسيم الذي هو من طباع اليهود.

ـ ومنها الافتتان بكثرة ما رواه الحشوية من شذاذ المحدثين الذين جعلوا همهم التكثر من رواية الحديث دون أن يفقهوه أو يميزوا صحيحه من عليله.

ـ ومنها حب الرياسة والزعامة ولو في الباطل، إلى غير ذلك من الأسباب التي تعرف بمراجعة تواريخ الفرق الضالة وتواريخ رؤسائها الحاملين لأكبر أوزارها.

وكان من أفحش تلك الضلالات ضلالات المعطلة من الجهمية، وضلالات المجسمة من غلاة الشيعة والروافض والكرامية ومن وافقهم على نحلهم الباطلة من الفرق الأخرى، وقا اجتهدت تلك الفرق الضالة المضلة في نشر أباطيلها بين المسلمي

لإضلالهم عن سواء السبيل، ولما كانوا يعلمون أن كل عقيدة لا يؤيدها سَنَدٌ علمي من كتاب الله تعالى أو سنّة رسوله ﷺ لا تجد قبولًا عند أحد من المسلمين، فقد عمدوا إلى كتاب الله تعالى فجعلوه عضين، ونبذوا محكماته التي هي الأصل والمرجع وراء ظهورهم، وعكفوا على الآيات المتشابهات منه بعد أن نزعوا عنها ولاية المحكمات يحاولون إرغامها على تأييد آرائهم ونحلهم الفاسدة، وأولوها بآرائهم تأويلات لا تستقيم إلا على منطق الحمير، فكانوا بذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ وصدق عليهم قول رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذورهم» وعمدوا إلى جمع الأحاديث التي رأوا أنها تشهد لهم دون أن يتوثقوا من صحة متونها، وعدالة رواتها، وصدق عزوها إلى النبي ﷺ.

وساعدهم على ذلك الجهلة من حَشَوية المحدثين، فجمعوا من الأحاديث الغريبة ما توهموا أنه يؤيد نحلهم، وفاتهم أن كل تأويل للمتشابه لا يشهد له المحكم فهو باطل، وأن أحاديث الآحاد لا تفيد اعتقاداً على فرض صحتها، فكيف إذا كانت ضعيفة أو موضوعة، وخرجوا على الناس بصور غريبة من المعتقدات زعموا أنها معتقدات السلف، والسلفُ براء منها، وانتحلوا لأنفسهم بها صفة الإمامة، فكانوا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ولعمري لقد كان التناقض عجيباً بين تلك الطوائف التي زعمت أنها تدين بالإسلام وهي على طرفي نقيض في التعطيل

والتجسيم، التعطيل الذي قال به جهم وأصحابه، والتجسيم الذي قال به محمد بن كرام وأتباعه، وغيرهم من غلاة الشيعة والروافض، ولكنها الأهواء الشاردة تلعب بعقول الناس فتضلهم عن سنن الحق وسواء السبيل.

فأما جهم وأصحابه فقد كان من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته «بترمذ» وقتله سالم بن أحوز المازني «بمرو» في آخر ملك بني أمية، وكان مغالياً في تعطيل صفات الله تعالى، فنفى أن يوصف الله تعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضي تشبيهاً، فنفى كونه حياً عالماً، وأثبت كونه قادراً فاعلًا خالقاً لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل، وقد دلّ الخبيث بقوله ذلك على أنه مجنون مسلوب العقل، إذ كيف يوصف بالقدرة من لم يكن حياً، وقد أكفرته الأمة لأنه أنكر صفات الله الثابتة بصرائح الآيات القرآنية المحكمة، ألم يقرأ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾ وكان جهم مع ضلالاته هذه وغيرها مما لا يتّسع المقام لذكره يحمل السلاح ويقاتل السلطان، ويستبيح دماء المسلمين، وتلك صفة لازمة لكل صاحب نِحْلة باطلة، نجد قلبه مليئاً بالحقد على المسلمين، وحب ممالأة أعداء الدين فلعنة الله على الظالمين.

وبينما كانت بلاد خراسان تسري فيها ضلالات هذا الرجل الخبيث سريان السموم في الشرايين، كانت غيرها من البلاد تضجُّ بضلالات أخر تقابلها مقابلة التضاد، وهي ضلالات المجسّمة والمشبهة من غلاة الشيعة والحشوية والكرامية وغيرهم.

فأما الحشوية من أصحاب الحديث فقد صرَّحوا بالتشبيه مثل الهشاميين من الشيعة، ومثل نصر وكهمش وأحمد الهجيمي، الذين قالوا إن معبودهم صورة ذات أبعاض إما روحانية وإما جسمانية، يجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكين وغير ذلك، وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها ونسبوها إلى النبي ﷺ، وأكثرها مقتبسة من اليهود فإن التشبيه طبيعة فيهم، ومن يقرأ كتاب «العهد القديم» الموجود بأيديهم الآن يتبين له أنهم يعتقدون في إلههم أنه على صورة الإنسان، وله خواص الإنسان وصفاته، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فقد نسبوا إليه الندم والنسيان والجهل بعاقبة فعله إلى غير ذلك مما يعلم من «سِفر التكوين»، والمؤرِّخ الناقد والباحث البصير لا يعزب عن علمه معرفة العلاقة بين معتقدات اليهود ومعتقدات المجسّمة من هذه الأمة، فإن النسب بينهما ظاهر، والتولد لائح لكل ذي عينين.

وأما الكرامية أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام فقد بالغوا في التجسيم كما بالغ جهم في التعطيل، فزعموا أن معبودهم جسم له حد ونهاية من تحته والجهة التي يلاقي منها عرشه، وأنه مماس للعرش من الصفحة العليا، وقد زعم ابن كرام في بعض كتبه (وهو كتاب عذاب القبر) أركسه الله فيه، أن الله جوهر كما زعمت النصارى، وقد تحاشى أتباعه إطلاق لفظ الجوهر عليه مع تصريحهم بأنه جسم، كما تحاشى الروافض من إطلاق لفظ الجسم عليه مع قولهم إنه على صورة الإنسان، وزعم ابن كرام في كتابه هذا أن الله مماس لعرشه، وأنَّ العرش مكان له، إلى أمثال ذلك من الهذيانات التي تدل على أن قائلها مغرق في الكفر مطبق الجنون.

وإن تعجب فعجب أن تجد بعض الحشوية من جهلة المحدثين قد انتزعوا من غرائب الأخبار صورة إنسان مبتور الرأس زعموا أنها صورة معبودهم، وذلك يدل على أنهم كانوا يتكلمون بلا رؤوس مفكرة فصوَّروا إلههم بصورة أنفسهم.

كان انتشار هذه الضلالات التي روَّجها أصحاب الأهواء من الفرق المبطلة مثيراً لحركة علمية عنيفة قام بها علماء الأمة الأعلام من جهابذة وصيارفة الأخبار، ومن فحول النظَّار والمتكلمين، لدفع شبه المبطلين، وصيانة معتقدات المسلمين، حتى قضوا عليها قضاءً مبرماً، ودمغوها بواضحات الحجج والبراهين، وكان في طليعة الكتيبة الأولى من كتائب أهل الحق الإمام الحافظ الحجة الثبت أحمد بن الحسين بن علي البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ، فقد كبت كيدهم ورد زيغهم في كتابه: «الأسماء والصفات» الذي هو نسيج وحده في بابه، وفي طليعة الكتيبة الثانية الإمام النظَّار المتكلم الأصولي سيف أهل السنة في رقاب الملاحدة أبو بكر الباقلاني رحمه الله، والأستاذ الإسفراييني وإمام الحرمين، ومن بعدهم الإمام الرازي فخر الدين صاحب التفسير الكبير، ورمز العبقرية الإسلامية في العصور الوسطى، وغيرهم من الأشاعرة والماتريدية الذين لا يحصى لهم عد، ولا يجحد لهم فضل: «هم القوم كل القوم يا أمَّ مالك».

وقد مات أصحاب تلك الضلالات فماتت بموتهم، واستراحت الأمة الإسلامية من كيدهم، ولكن قضى الله ألا يعدم الباطل في كل عصر أذناباً يفتحون بضلالهم باب الجهاد العلمي في سبيل الله لعلماء الأمة الأعلام، المخلصين لله ولرسوله ولدينه

ولعامة المسلمين، وقد حقَّت كلمة القضاء المحتوم أن توجد منهم طائفة في عصرنا تنبش عن رمم تلك المعتقدات الباطلة لتؤذي بنتنها مشامَّ المسلمين، وتؤلم بخبثها شعورهم، وقد أخذت في الدعاية لها وترويجها بين المسلمين بشتى الوسائل، واللَّهُ أعلم بالدوافع التي حملتهم على ذلك، لأنهم ليسوا من العبقرية بمكان يسوِّغ لهم انتحال الزعامة في الباطل كأسلافهم من قبل، وسواء علينا أكانوا يروِّجون معتقدات المجسمة والمشبهة عن اعتقاد واقتناع أم عن غير ذلك مما لا نعلمه، فإنا سنوجه جهودنا بحول الله تعالى وقوته إلى تبيان الحق في كل ما يتعلَّق بصفات الله تعالى، ونقرر حقيقة مذهب السلف فيها، ومذهب الخلف بنواصع الأدلة، ومن الله تعالى نستلهم الصواب، ونستمد التوفيق والسداد ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

٢ ــ المجسّمة والمشبهة

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ».

رواه البخاري

الشرح والبيان:

أنزل الله تعالى القرآن الكريم منه آيات محكمات أي واضحات الدلالة على المعنى المراد منها ليس فيها غموض ولا التباس، لوضوح مفرداتها، ومتانة تراكيبها، فيها حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ومنه آيات أخر متشابهات، أي محتملات الدلالة على معان كثيرة من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد، أنزلها الله تعالى في كتابه ابتلاءً للعباد، وامتحاناً لأفكارهم، واختباراً لإيمانهم، وإظهاراً لأقدارهم، لأن تفاضل الناس في الإيمان والعلم لا يظهر إلا في مواطن الالتباس والاشتباه، فمن ردَّ المتشابه إلى أصله من المحكم وأجراه معه على نسق واحد فقد رشد، ومن عكس الأمر فجعل المتشابه أصله الذي يرجع إليه ويعتمد عليه واطرح المحكم جانباً

فقد ضل وغوى، ومن هنا كان ضلال أصحاب الأهواء من الفرق الزائغة عن نهج الحق والرشاد، فإنهم أهملوا النظر في محكمات القرآن، واتبعوا متشابهه، فخرجوا منه بما ينقضه القرآن جملة وتفصيلًا، كما فعل المجسِّمة الذين زعموا أن الله تعالى جسم اتباعاً لظواهر بعض الآيات المتشابهة التي أثبتت له ما هو من خصائص الأجسام، وغفلوا عن الأصل المحكم القاضي بتنزيهه تعالى عن مشابهة خلقه وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي ضلال وميل عن الحق إلى الباطل كالكفار والزنادقة والجهال وأصحاب البدع والأهواء ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال ألفاظه لما يصرفونها إليه، أما المحكم فلا نصيب لهم منه، لأنه دامغ لباطلهم، وحجة عليهم، ولذلك قال تعالى في بيان علة اتباعهم المتشابه: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي يأخذون بالمتشابه طلباً للشبهات واللبس على المؤمنين حتى يفسدوا ذات بينهم، ويردوا الناس إلى زيغهم.

قال القرطبي رحمه الله: قال شيخنا أبو العباس رحمة الله عليه: متبعو المتشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلباً للتشكك في القرآن وإضلال العوام، كما فعلته الزنادقة والقرامطة الطاعنون في القرآن، أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه كما فعلته المجسِّمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنّة مما ظاهره الجسميّة حتى اعتقدوا أن الباري تعالى جسم مجسَّم وصورة مصوَّرة ذات وجه

ويد وعين وجنب ورجل وإصبع تعالى الله عن ذلك، أو يتبعوه على جهة إبداء تأويلاتها، وإيضاح معانيها، أو كما فعل صبيغ حين أكثر على عمر فيه السؤال.

فهذه أربعة أقسام:

الأول: لا شك في كفرهم وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة.

الثاني: القول بتكفيرهم، إذ لا فرق بينهم وبين عباد الأصنام، ويستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا كما يفعل بالمرتد.

الثالث: اختلفوا في جواز ذلك بناء على الخلاف في جواز تأويلها، وقد عرف أن مذهب السلف ترك التعرض لتأويلها مع قطعهم باستحالة ظواهرها، فيقولون أمرُّوها كما جاءت، وذهب بعضهم إلى إبداء تأويلاتها وحملها على ما يصح حمله في اللسان عليها من غير قطع بتعيين مجمل منها.

والرابع: الحكم فيه الأدب البليغ، كما فعله عمر بصبيغ، وكان من شأنه أنه قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فبعث إليه عمر فأحضره وقد أعد له عراجين من عراجين النخل، فلما حضر قال له عمر: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، فقال عمر رضي الله عنه: وأنا عبد الله عمر، ثم قام إليه فضرب رأسه بعرجون فشجَّه، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب ما كنت أجد في رأسي.اهـ.

وأنت ترى من هذا البيان أن الذين ذمَّهم الله تعالى هم

الذين يتَّبعون المتشابه قصداً للتشكيك وإضلال العوام، أو طلباً لاعتقاد ظواهره، أما الذين يقصدون إبداء تأويله بما يدل عليه المحكم لإيضاحه إذا توفرت لهم شروط التأويل الصحيح فليسوا مرادين من الآية الكريمة، لأنهم لم يقصدوا فتنة المسلمين، وإنما قصدوا بيان النصوص لهم، وعلى هذا يتخرج تأويل علماء الكلام والبيان للآيات المتشابهات، ويرتفع عنهم الحرج في ذلك.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ التأويل له معنيان:

أحدهما: حقيقة الشيء وما يؤول إليه أمره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ أي حقيقة ما صارت إليه الرؤيا.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

والمعنى: هل ينظرون إلى حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا المعنى فالوقف يكون عند قوله إلا الله لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمها على الجلية إلا الله تعالى، وأكثر من التزموا الوقف على الجلالة فسروا المتشابه بما لا يعلمه إلا الله من الأمور الثابتة. كالروح ويوم القيامة.

والمعنى **الثاني** للتأويل: التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ أي: بتفسيره، فإن أريد هذا المعنى فالوقف على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه.

وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ حالًا، أي يعلمونه حال كونهم قائلين آمنا به كل من عند ربنا، ويؤيد ذلك أن الله تعالى سماهم راسخين في العلم، وذلك يقتضي أنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شيء يكون رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع. لكن المتشابه يتنوّع فمنه ما لا يعلم البتة كأمر الروح والساعة مما استأثر الله بغيبه، وهذا لا يتعاطى علمه أحد من الناس، فمن قال من العلماء الحذاق إن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه فإنما أراد هذا النوع، وأما ما يمكن حمله على وجوه في اللغة ومناح في كلام العرب فيتأول ويعلم تأويله المستقيم من غيره فلا يكونِ أحدٌ راسخاً إلا بأن يعلم من هذا النوع كثيراً مما قدر له.

والخلاصة: أن المتشابه لا يعلم حقيقته إلا الله وحده، أما تفسيره على حسب وجوه اللغة ومناحي كلام العرب فيعلمه الراسخون لأنهم خوطبوا به وهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به، وعلى هذا ينبني الخلاف في الوقف.

ولنضرب لذلك مثلًا للإيضاح قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾ فهي من المتشابه، واليد المسندة إلى الله في الآية لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى مع العلم بأن حملها على الجارحة محال قطعاً، ولا يعلم الراسخون حقيقة المراد باليد، ولكنهم يعلمون تفسيرها باعتبار معتاد الأسلوب العربي وعُرف الخطاب، فيعلمون أن المراد باليد القدرة لأن اليد مظهر القدرة: ومن هنا لا تجد عالماً من الراسخين إلا واستقام له فهم القرآن الكريم على

نسق واحد باعتبار المعتاد من أساليب العرب، وإن كانت الحقائق لا يعلمها إلا علام الغيوب.

وسواء أقلنا إن الراسخين في العلم الثابتين فيه يعلمون تفسير المتشابه باعتبار معهود الخطاب العربي أو لا يعلمونه باعتبار حقيقته فإنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، أي كل من المحكم والمتشابه حق من عند ربنا يصدق بعضه بعضاً: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي ما يقول هذا ويؤمن ويقف حيث وقف ويدع اتباع المتشابه إلا ذو لب وعقل، أو ما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها إلا أصحاب العقول السليمة، والفهوم المستقيمة.

قالت عائشة قال رسول الله ﷺ: **«فإذا رأيت الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»**.

وفي رواية: «فإذا رأيتم»، والمعنى فإذا رأيتم الذين يعمدون إلى جمع المتشابه قصداً للتشكيك وإضلال العوام، أو قصداً لاتباع ظاهره الذي يدل المحكم على أنه غير مراد كما فعلت المجسّمة فأولئك هم الذين سماهم الله بالزائغين عن سنن الحق ومحجة الهدى، فاحذروهم، ولا تستمعوا إليهم، لئلا يفتنوكم في دينكم.

ومن عجب أن ترى الفرق الضالة كالمجسمة لا همّ لها إلا البحث في المتشابه والتحدث فيه في مجالس العوام، والتشغيب به على غيرهم من المسلمين لأن دوافع الزيغ في قلوبهم قوية تدفعهم إلى التلبيس به على عقول المسلمين، فمن الخير ألا يجلس إليهم أحد، وألا يستمع الناس إلى ما يقولون بغير علم، وقد حذر منهم رسول الله ﷺ لعلمه بأنهم أشد خطراً على

المسلمين من أعدائهم المجاهرين، لأنهم يضلونهم باسم الدين.

هذه نصيحة رسول الله ﷺ للمسلمين، ونعمت النصيحة، ونعم الناصح الأمين، الحريص على هداية المؤمنين، فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليبتعد عن مجالس المضلين الذين يريدون تمزيق وحدة المسلمين بالدعوة إلى نحل باطلة لا يرضاها رب العالمين، ولنقل كما قال الراسخون في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ آمين.

٣ ـ الحجة الدامغة، لشبهات المجسمة الزائغة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعاً، فَلَمَّا خَلَقَهُ قالَ اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوا وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ».

رواه البخاري

الشرح والبيان:

دَلَّت الآيات المحكمات على أن الله تعالى منزَّه في ذاته وصفاته عن مشابهة خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وعلى ذلك انعقد إجماع الأمة من السلف والخلف، ولم يخالف في ذلك إلا الزائغون من أصحاب البدع والأهواء الذين اتبعوا ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بما يتفق مع نحلهم الباطلة، وهؤلاء لا عبرة بهم لأنهم حائدون عن سنن الحق ونهج الصواب.

ومن قواعد الإسلام المقررة: أن كل ما ورد في الكتاب

والسنة موهماً مشابهة الله تعالى خلقه فهو من المتشابه الذي يجب رده إلى المحكم، ولا يجوز أخذه على ظاهره، لأنَّ النصوص المحكمة قرائن تدل على أن النصوص المتشابهة لا يراد منها ما يدل عليه ظاهر اللفظ، غير أن السلف أمسكوا عن تعيين المراد منها مبالغة في الورع والاحتياط للدين، وحذراً من التهجم على مراد الله تعالى، وأما الخلف فإنهم ردوها إلى المحكمات وخرجوها على طرائق البيان العربي دفعاً لشبه الزائغين، وصوناً لاعتقاد المسلمين.

وقد نَجَمَت في عصرنا هذا طائفة جعلت همها الدعوة إلى مذهب المجسِّمة الذي أجمعت الأمة على بطلانه، وزيغ أصحابه، وأخذت تموِّه على العوام وأشباههم بظواهر بعض الآيات والأحاديث المتشابهة بعد أن عَزَلوا عنها ولاية النصوص المحكمة محاولين بذلك صرفهم عن النهج القويم والصراط المستقيم الذي درجت عليه الأمة في اعتقادها من عهد السلف الصالح إلى عصرنا الحاضر، ولما كانت دعوتهم خطرة على معتقدات من لم يذوقوا طعم العلم الصحيح، ومن لم تكن لديهم الوسائل العلمية التي يذودون بها عن دينهم، فقد رأينا لزاماً علينا أن نتتبع طائفة من تلك النصوص المتشابهة فنردها إلى المحكمات، ونبيِّن المراد منها بحسب ما تدل عليه قواعد الإسلام القطعية التي لا يماري فيها إلا كل جاحد كفور، قياماً بالعهد الذي أخذه الله تعالى على رجال الدين، ونصحاً لإخواننا المسلمين، ومن الله تعالى نستمد التوفيق والعصمة من الزيغ والزلل ونستهديه إلى طريق الحق والسداد.

وسنبتدئ بحول الله تعالى وتوفيقه وهدايته في بيان قوله ﷺ: **«خلق الله آدم على صورته»** لأنه من الأحاديث التي

تمسَّك بها الدعاة إلى مذهب التجسيم في إثبات ما تنزَّه الله عنه من الصورة، فنقول وبالله التوفيق:

اعلم أن قول رسول الله ﷺ: **«خلق الله آدم على صورته»** قد وقع فيه الضمير كناية بين اسمين ظاهرين، أحدهما لفظ الجلالة، والثاني آدم، وهو لا يصلح أن يكون راجعاً إلى لفظ الجلالة لتضافر الأدلة على استحالة الصورة على الله تعالى لأنه جل شأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ولأن الصورة ـ أي الشكل ـ من الكيفيات اللازمة للمحدثات فتكون محالة على الله تعالى، وإذا كان رجع الضمير إلى الله تعالى في الحديث غير جائز لما أسلفناه فيتعين أن يكون راجعاً إلى آدم عليه الصلاة والسلام لأنه الاسم الظاهر الذي يصحُّ عود الضمير إليه، وعلى ذلك يكون الكلام محتملًا لعدة وجوه من التأويل.

١ ـ منها: أن الله تعالى خلق آدم عليه الصلاة والسلام في ابتداء نشأته خلقه تاماً على الصورة التي كان عليها في نهاية حياته، طوله ستون ذراعاً، ولم يخلقه أطواراً كذريته، يكونون في مبدأ الخلقة نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم صوراً أجنة في بطون أمهاتهم إلى نهاية مدة الحمل، فيولدون أطفالًا، وينشؤون صغاراً إلى أن يكبروا فتطول أجسامهم، فكأنه ﷺ يقول: إن آدم عليه السلام خلق من أول الأمر ـ بعد تكوين طينته ونفخ الروح فيه ـ بشراً سوياً كامل النمو، طوله ستون ذراعاً ولم يكن كذريته يتنقلون في أطوار الخلق من طور إلى طور، فصورتُه التي كان عليها في نهاية حياته هي التي خلق عليها في أول نشأته، ويكون المعنى على هذا بالإجمال خلق الله آدم في ابتداء نشأته على الصورة التي

كان عليها في نهاية حياته من حيث الطول والعرض واللون وغير ذلك من كيفيات الجسم، ولم يجعله متقلباً في أطوار الخلق كذريته، واقتصر النبي ﷺ على بيان طوله لأنه هو الأمر الغريب الذي لم يكن معروفاً عند المخاطبين.

٢ ـ ومنها: أن الله تعالى خلق آدم على صورته التي استمر عليها إلى أن أهبط من الجنة وإلى أن مات، لم تُغيَّر صورته، ولم تشوَّه خلقته، دفعاً لتوهم من يظن أنه لما كان في الجنة كان على صورة أخرى، ثم تغيَّرت بعد أكله من الشجرة وإهباطه من الجنة، والمقصود منه أنه عليه الصلاة والسلام كان مصوناً من المسخ، وأنَّ الله تعالى لم يعاقبه بتغيير صورته لأكله من الشجرة نسياناً، بل تقبل توبته وعفا عنه واصطفاه واجتباه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ وأبقاه بعد هبوطه من الجنة على صورته التي خلق عليها مصوناً من المسخ، وذلك من فَضْل الله تعالى ورحمته.

٣ ـ ويُحتمل أن يكون مراده ﷺ من قوله: «خلق الله آدم على صورته» الرد على الدهرية الذين قالوا إنه لم يكن إنسان إلا من نطفة، ولا نطفة إلا من إنسان، ولا أول لذلك، يقصدون بذلك أن السلالات البشرية تمتد من جانب الماضي إلى غير بداية، فبيَّن عليه الصلاة والسلام فساد هذا القول بالتنبيه على أنَّ آدم عليه الصلاة والسلام الذي هو أبو البشر كلهم ومبدأ النوع الإنساني بإجماع أهل الأديان خلق على صورته التي كان عليها من غير أن يتولَّد من نطفة، فكان خلقه بداية للنشأة الآدمية التي تناسل أفرادها وتعاقبوا إلى عصرنا هذا، وسيتعاقبون إلى أن تقوم الساعة،

ويفنى العالم، ويرث الله الأرض ومن عليها، وإذا كان الأمر كذلك، وكان للسلالات الإنسانية مبدأ هو آدم عليه الصلاة والسلام الذي خلق من غير نطفة، فقد بطل قول الدهرية الذين حاولوا إثبات قدم العالم، وعدم افتقاره إلى الخالق سبحانه.

فأنت ترى مما تقدم أن الحديث الشريف صريح في أن آدم عليه الصلاة والسلام كان في مبدأ خلقه على الصورة التي كان عليها في نهاية حياته، وأن ذلك يحتمل أن يكون الغرض منه بيان الفرق بين خلقه وخلق ذريته، أو دفع توهم من يظن أنه بعد إهباطه من الجنة كان على صورة غير التي كان عليها في الجنة، أو الرد على الدهرية القائلين بقدم العالم، وأياً ما كان المراد فليس في الحديث ما يوهم تشبيه الله تعالى بخلقه.

٤ ـ على أن بعض المحققين (وهو الحافظ ابن حجر) صرح بأن لهذا الحديث سبباً هو قصة الرجل الذي ضرب خادمه، فقال النبي ﷺ: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه فإنَّ الله خلق آدم على صورته» أي على صورة المضروب، وبذلك يزول الإشكال، ويتَّضح المراد.

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه ولا يقل قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته» أي صورة المضروب أو المشتوم، لأنَّ وجه آدم شبيه بوجه بنيه، فمن قبَّح وجه أحد من الناس فكأنما قبَّح وجه آدم عليه السلام، ووجوه جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وذلك من أفحش الجرائم والآثام.

وهذا الوجه في عود الضمير على المضروب والمشتوم هو

الذي اعتمده الحافظ ابن خزيمة إذ يقول في صفحة ٢٧ من كتاب «التوحيد» بعد أن ذكر الحديث وهو قوله ﷺ: «**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته**» يقول: «توهم بعض من لم يتحرَّ العلم أن قوله: «على صورته» يريد صورة الرحمن، عزَّ ربُّنا عن أن يكون هذا معنى الخبر، بل معنى قوله: «خلق آدم على صورته» الهاء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم، أراد ﷺ أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب والذي قبح وجهه، فزجر ﷺ على أن يقول ووجه من أشبه وجهك لأن وجه آدم شبه وجوه بنيه، فإذا قال الشاتم لبعض بني آدم: قبّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك كان مقبحاً وجه آدم صلوات الله وسلامه عليه، فتفهموا هذا الخبر، لا تغلطوا وتغالطوا فتصدوا عن سواء السبيل، وتحملوا على القول بالتشبيه الذي هو ضلال». اهـ.

٥ ـ على أننا لو تنزّلنا وجوّزنا رجوع الضمير إلى لفظ الجلالة فليس في الحديث ما يدل على ثبوت الصورة لله عز وجل أيضاً، لأن إضافة الصورة إليه تكون من إضافة الخلق إلى خالقه للتشريف، كما يقال: بيت الله ومسجد الله، ويكون المعنى خلق الله آدم على الصورةِ الجميلة التي هي خلق له، ونظير هذه الإضافة معهود في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فأضاف الله الخلق إلى نفسه إذ هو الذي تولى خلقه.

وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ فأضاف الناقة والأرض إلى نفسه لأنه خلقهما وهما مملوكتان له.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ﴾ وقال: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾.

فكل ما أضافه إلى نفسه في هذه الآيات ونظائرها فإنما هو من إضافة الخلق لخالقه، فكذلك الصورة في الحديث تخرج على هذا الوجه، وليست إضافتها إليه لكونها من صفات ذاته، تعالى الله عما يقول المفترون علواً كبيراً.

وقد اغترَّ بهذه الإضافة بعض من تكلم في العلم بما لو أمسكوا عنه لكان خيراً لهم في دينهم وأخراهم، فضلوا عن سنن الحق، وقد أوضحنا لك الحق بما لا مزيد عليه ولله الحمد والمنة[1].

فأنت ترى مما تقدم أن الحديث الشريف على وجوه احتمالاته ليس فيه ما يدل على إثبات الصورة لله تعالى كما قال الأغبياء من المجسمة الذين لم يحسنوا فهم الحديث، وهو بما قدمناه لك من التأويلات الصحيحة لا يتعارض مع نصوص التنزيه المحكمة، ومن الواجب في هذا المقام أن نلفت الأنظار إلى أن كل حديث ورد عن النبي ﷺ يجب أن يحمل على أعدل الوجوه وأحسنها وأنقاها وأوفقها بما تدل عليه نصوص القرآن الكريم، كما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه أنه قال: «إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظنوا برسول الله ﷺ أهيأه

---

(١) ومن هؤلاء الشيخ حمود التويجري في كتابه «عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن»!! نعوذ بالله من التشبيه وأهله.

وأهداه»، وروي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما قالا: **«إذا** حدثتم عن رسول الله ﷺ فظنوا به الذي هو أهيأ وأهدى وأنقى» والأثران أخرجهما البيهقي في «الأسماء والصفات»، على أنك لا تجد بحمد الله شيئاً صحَّت به الرواية عن رسول الله ﷺ إلا وله تأويل يحتمله وجه الكلام، ومعنى لا يستحيل في عقل أو معرفة.

قال عليه الصلاة والسلام: «**فلما خلقه**» الله تعالى: **«قال اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة»** والنفر الجماعة من الثلاثة إلى العشرة، وإنما أمره الله تعالى بالسلام عليهم لأن السلام جالب للمودة، وسببٌ في تأليف القلوب، وليكون ذلك سنةً لذريته من بعده في تحية بعضهم بعضاً، وكان هؤلاء الملائكة جلوساً، والله أعلم بمكانهم «**فاستمع ما يحيونك**» به، وفي رواية ما يجيبونك «**فإنها**» أي الكلمات التي يحيونك أو يجيبونك بها «**تحيتك وتحيةُ ذريتك**» من جهة الشرع، وإن كان الناس قد استبدلوا بهذه التحية غيرها مما اصطلحت عليه كل أمة منهم، وكان الواجب أن يلتزموا تحية أبيهم آدم عليه السلام، أو المراد بالذرية بعضهم وهم المسلمون بناء على أن التحية بالسلام شرعت لهم دون غيرهم، كما يدل عليه ما أخرجه البخاري في **«الأدب** المفرد» وابن ماجه وصححه ابن خزيمة من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة مرفوعاً: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدوكم على السلام والتأمين».

وفي حديث أبي ذر الطويل في قصة إسلامه: «فكنت أول من حياه بتحية الإسلام فقال: وعليك ورحمة الله» أخرجه مسلم.

وأخرج الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة

رفعه: «جعل الله السلام تحية لأمتنا وأماناً لأهل ذمتنا».

فهذه الأحاديث تدل على أن السلام شرع تحية للمسلمين دون غيرهم، وعلى ذلك يكون المراد بقوله وتحية ذريتك أي المسلمين منهم **«فقال»** آدم: **«السلام عليكم»** وهذه الصيغة يحتمل أن يكون الله تعالى قد علمه إياها تنصيصاً، ويحتمل أن يكون فهم ذلك من قوله فسلم عليهم، واستدل بهذا على أن هذه الصيغة هي التي شرعت لابتداء السلام، لقوله: فإنها تحيتك وتحية ذريتك فلو حذف اللام وقال: سلام عليكم جاز أيضاً لقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ لكن اللام أولى، «فقالوا» أي الملائكة: «السلام عليك ورحمة الله» واستدل به على جواز وقوع الرد باللفظ الذي ابتدئ به، وفي رواية: «وعليك السلام» وهذا هو المشهور في رد التحية: «فزادوه ورحمة الله» أي زاد الملائكة في رد التحية قولهم ورحمة الله، وفي ذلك دليل على مشروعية الزيادة في الرد على الابتداء، وهو مستحب بالاتفاق لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾.

وقد اتفق العلماء على أن رد السلام واجب على الكفاية إذا قام به البعض سقط الوجوب عن الباقين، وإن تركه جميع السامعين أثموا.

وهذه التحية المباركة جعلها الله تعالى شعاراً للمسلمين، ورمزاً لوحدتهم، ومظهراً لوجودهم، وهي تجمع بين التحية والدعاء من المسلم لأخيه بالسلام والأمن والطمأنينة من شرور الدنيا وأهوال الآخرة، وهي التي تفتح بين المسلمين أبواب المودة، وتوثّق روابط المحبة، ومع الأسف قد تركها كثير من

المفتونين في هذا العصر واستبدلوا بها تحايا الأمم الأخرى، فأهدروا بذلك عزّتهم، وأضاعوا كرامتهم، وأفنوا وجودهم في وجود غيرهم، إذ جعلوا أنفسهم لهم أذناباً، ونراهم مع ذلك ينشدون الاستقلال، ويتغنون بأناشيد الوطنية والقومية، ويدعون المحافظة على الحرية، وقد رضوا بالعبودية في أعظم شعار ورمز للكرامة والقومية، فبئس ما جنوا على أنفسهم وعلى أمتهم بذلك التقليد الأعمى.

ثم قال رسول الله ﷺ: **«فكل من يدخل الجنة على صورة آدم»** في الطول والحسن والجمال: **«فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن»** أي لم يزل الناس بعد آدم عليه السلام ينقص طولهم شيئاً فشيئاً بحيث تكون نشأة القرن في الطول أقصر من نشأة القرن الذي قبله، فانتهى تناقص الطول إلى هذه الأمة، واستقرَّ الأمر على ذلك.

وقد استشكل بعضهم على هذا بما يوجد الآن من آثار الأمم السالفة كديار عاد وثمود فإن مساكنهم تدل على أن قامتهم لم تكن مفرطة في الطول، كما يدل عليه الترتيب السابق، وقد وجد كثير من أجساد قدماء المصريين في عهود بعيدة تقارب طول أجسامنا، وهم كانوا موجودين في مطلع التاريخ.

والجواب على هذا الاستشكال سهل يسير، فإن المدة التي انقضت بين آدم عليه السلام وبين أهل القرون الحاضرة فوق ما نقله الإخباريون وأهل الكتاب ولا يعلمها على الحقيقة إلا علام الغيوب، وقد دلت الحفريات التي قام بها علماء الآثار على أنَّ بعض الأجساد التي أخرجت من باطن الأرض لا بد أن يكون قد

مرَّ عليها مئات الآلاف من السنين، وعلى أن مبدأ نشأة الإنسان على وجه الأرض أبعد بكثير مما يرويه الإخباريون وأهل الكتاب، وهذا الحديث يؤيد ذلك الرأي، لأنه صحَّ عن الصادق المصدوق الذي يخبر عن وحي ربه، وهو صريح في أن النوع الإنساني قد مرت عليه أعصار كثيرة فوق ما يتوهمه الناس تناقص فيها طوله حتى وصل إلى الحد الذي هو عليه الآن، ورسول الله ﷺ أصدق من جميع الأخباريين الذين يقدرون عمر النشأة الإنسانية بالتخمين لعدم وجود الوثائق الصحيحة التي تؤيد ما يقولون، وأصدق من أهل الكتاب الذين افتجروا في كتبهم أكاذيب ما أنزل الله بها من سلطان.

ولا يلزم من رد الملائكة السلام بالعربية أن يكونوا قد نطقوا بها، بل الأقرب إلى الصواب أن يكونوا قد تكلموا بلغة لا نعلمها، وترجم ذلك إلى العربية في خبر الرسول عليه الصلاة والسلام، كما نقلت قصص الأولين وعبر عنها باللفظ العربي، وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على أنهم تكلموا بالعربية.

وصفوة القول: أنَّ الحديث يدل على أن آدم عليه الصلاة والسلام نشأ من مبدأ خلقه على الصورة التي كان عليها في نهاية حياته طويل القامة، وأن المسلمين من ذريته سيكونون في الجنة على مقدار طوله، وليس فيه ما يتوهم منه تأييد مذهب المجسمة والحمد لله الذي هدانا للحق وإلى صراط مستقيم.



٤ ــ المجسِّمة والمشبِّهة

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾

بيّنا في مقالنا السابق أن المسلمين من السلف والخلف ومن المحدثين والفقهاء والمتكلمين مجمعون على تنزه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة خلقه في ذاته وصفاته، وأنه لم يشذ عن هذا الإجماع الذي تضافرت عليه أدلة الكتاب والسنّة إلا أصحاب الأهواء من المجسّمة والمشبهة الذين افتجروا عقيدةً ما أنزل الله بها من سلطان، اتَّبعوا فيها سنن اليهود، وخالفوا بها هدى القرآن، وسبيل المؤمنين، وألمعنا إلى بعض الأسباب التي حملت رؤوسهم على انتحال عقيدة التجسيم الباطلة، واليوم نأتي على بقية الأسباب التي ورطتهم في تلك النحلة الفاسدة السخيفة، فنقول وبالله التوفيق، ومنه العصمة والسداد.

ومن أعظم أسباب ضلال الفرق الزائغة عن الصراط المستقيم:

١ ـ جهلهم باللّهِ عز وجل، وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا التي تدل على تنزهه سبحانه وتعالى عن مشابهة خلقه.

٢ ـ وفقدانهم نور القلب الذي يفرِّق به المؤمن بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال.

٣ ـ وجمودهم على ظواهر ألفاظ المتشابهات، وغفلتهم عما

اقترنت به من القرائن التي ترشد الباحثَ المنصفَ إلى معرفة المراد منها، إما من الآياتِ المحكمة، وإما من دلالة السياق.

٤ ـ وجهلهم الفاضح بمجازاتِ اللغة وسَعَة اللسان العربي ومناهج البيان الذي نزل به القرآن الكريم، ونطق به أفصح العرب سيدنا ومولانا محمد ﷺ.

فكانت هذه العوامل إلى ما يضاف إليها من اتباع متشابهات الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها بالهوى، وإلى ما كان في قلوب بعضهم من الضغن على الإسلام وحب الكيد له لإطفاء نوره، وإلى ما استهوى بعضهم من حبِّ التزعُّم ولو بالباطل ليذيع صيتهم من طريق المخالفة والشذوذ، بعد أن عجزوا عن التصدُّر والرِّئاسة من طريق الموافقة واتباع سبيل المؤمنين، كانت هذه العوامل مجتمعةً من أهم الأسباب التي جعلتهم يصدفون عن سبيل الحق، ويخالفون أهل السنة والجماعة فيما أجمعوا عليه من تنزيهِ الله تعالى عن مشابهةِ خلقه، وذلك خذلان من الله لهم أي خذلان: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

وقد زادهم الجهل بمعاني الأحاديث المتشابهة مضيّاً فيما هم بسبيلِهِ من اعتقاد التجسيم الباطل فضلُّوا من حيث لا يعلمون.

فاتهم أنَّ الرواية شيء، وأنَّ العلم بحقائق ما تدل عليه الروايات شيءٌ آخر وراء جمع المتون والأسانيد، بل هو كما قال إمام دار الهجرة وعَلَم المحدثين والفقهاء سيدنا مالك بن أنس رضي الله عنه: «ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يقذفه الله في القلب» أو كما قال، فوقفوا عند متون الروايات وقفة

اليهود عند أسفار التوراة، حَمَلوها ثم لم يحمِلوها، ولم يرفعوا بها رأساً، وعيت أذهانهم الكليلة عن فهمها كما فهمها الأئمة الأعلام الذين وهبهم الله تعالى مع الحفظ التام لكتابه وسنة رسوله ﷺ نوراً في قلوبهم كشف لهم الحُجُبَ عما أراد من عباده أن يعتقدوه من أصول دينهم، وأن يعملوا به من فروعه، وجعلهم في الأرض من أعلام حججه، يظهرون دينه للناس نوراً ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

فلما عجز المُبْطلون عن فهم المتشابهات على ضوء المحكمات والقرائن التي نَصَبها الشارع لإرشاد عباده إلى مراده منها، سلكوا فيها مسلكاً خالفوا به هدى السلف، فجمعوا نصوصها، ولفقوا منها صورةً لذات معبودهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأخذوا بظواهرها فحملوها على معانٍ حسية، ولبَّس عليهم إبليس فصَرَفهم عن تأويلها المطابق للشرع، فكانوا بذلك مخطئين من عدة وجوه:

من جهة جمع المتشابهات، وجعلها أصلًا يُبنى عليه الاعتقاد، وإغفال المحكم الذي هو أمُّ الكتاب.

ومن جهة حمل ظواهرها على معانٍ حسيَّةٍ تَقْتضي تشبيهَ الله تعالى بخلقه، وإهمال ما هو معلوم من الدين بالضرورة من تنزهه عن ذلك، وطرح التأويل الحق المطابق للشرع مع أخذ بعض السلف به في مقام البيان، وإن كان بعضهم أمسك عنه ورعاً واحتياطاً لا إنكاراً له.

ولما كانت نحلتهم الباطلة تدل على جهلهم بأسماء الله

تعالى وصفاته، وبالبيان العربي، لذلك عمدنا في مقالنا هذا إلى بيان أسماء الله الحسنى التي تدلُّ على تنزهه تعالى عن مشابهة خلقه، وسنتبعها بإذن الله تعالى ببيان المعنى الصحيح لما التبس عليهم فهمه من متشابهاتِ الكتاب والسنّة، كما فعلنا في شرح حديث: «خلق الله آدم على صورته»، ونسأل الله تعالى أن يفتح أغلاقَ قلوبهم للحق، وأن يبصِّرَهم دلائلَ الهدى، ليفيئوا إلى رُشْدِهم، ويتَّبعوا هدى أهلِ السنّة والجماعة في اعتقادهم، فيفوزوا بسعادةِ الدنيا والآخرة.

أسماءُ الله الحُسنى الدالَّة على تنزهه تعالى عن مشابهة خلقه

١ ـ من أسماء الله الحسنى الدالة على تنزهه سبحانه وتعالى عن مشابهة خلفه، اسمه **(المتعالي)**.

قال الله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ قال الحليمي: ومعناه المرتفع عن أن يجوز عليه ما يجوز على المحدثين من الأزواج والأولاد والجوارح والأعضاء، واتخاذ السرير للجلوس عليه، والاحتجاب بالستور عن أن تنفذ الأبصار إليه، والانتقال من مكان إلى مكان، ونحو ذلك، فإن إثبات بعض هذه الأشياء يوجب النهاية، وبعضها يوجب الحاجة، وبعضها يوجب التغيُّر والاستحالة، وشيء من ذلك غير لائق بالقديم، ولا جائز عليه.

٢ ـ ومنها **(الأحد)** قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴿١﴾﴾ وهو الذي لا تعدُّد في ذاته، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة، فليس بمادي، ولا هو من أصول متعددة غير مادية كما يزعم بعض أرباب الأديان من أنه أصلان فاعلان، أو أنه ثلاثة أصول تعتبر

واحداً وهي متعددةً. وقال الحليمي: معناه الذي لا شبيه له ولا نظير، فمدار معنى ذلك الاسم الكريم على نفي تركب ذاته تعالى من أجزاء كما تقول المجسِّمة، وعلى نفي شبهه بغيره كما تقول المشبهة، فمن عرف أحديَّة الله تعالى تبرَّأ من التجسيم والتشبيه.

٣ ـ ومنها (السَّلام) قال الله تعالى في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾.

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته قال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» رواه مسلم وبقية أصحاب السنن إلا البخاري.

قال الحليمي في معنى السلام: «إنه السالم من المعائب إذ هي غير جائزة على القديم، فإنَّ جوازها على المصنوعات لأنها أحداث وبدائع، فكما جاز أن يوجدوا بعد أن لم يكونوا موجودين، جاز أن يعدموا بعدما وجدوا وجاز أن تتبدل أعراضهم، وتتناقص أو تتزايد أجزاؤهم، والقديم لا علة لوجوده، فلا يجوز التغيُّر عليه، ولا يمكن أن يعرض له نقص أو شَيْن، أو تكون له صفة تخالف الفَضْل والكمال». اهـ، وأنت خبيرٌ بأن جماع معنى هذا الاسم الكريم أن السَّلام هو الذي سَلُم عن مشابهة خلقه.

٤ ـ ومنها (السبُّوح) عن عائشة رضي الله عنها قال: إن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه: «سبُّوح قدوس رب الملائكة والروح» أخرجه مسلم.

قال الحليمي في معناه: إنه المنزَّه عن المعائب والصفات التي تعتور المحدثين من ناحية الحدوث، والتسبيح التنزيه.

٥ ـ ومنها (**القدوس**) وقد ورد في القرآن الكريم وفي الحديث السابق ذكره، قال الحليمي: ومعناه: الممدوح بالفضائل والمحاسن. أو يقال: هو الطاهر من العيوب، المنزَّه عن كل وصف يدركه الحس، أو يتصوره الخيال، أو يسبق إليه الوهم، أو يختلج به الضمير، أو يقضي به التفكير، والمنزَّه عن صفات العباد وما يشبهها أو يماثلها.

٦ ـ ومنها (**العزيز**) قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: العزيز هو المنيع الذي لا يغلب، والعز قد يكون بمعنى الغلبة، يقال منه: عز يعُز بضم العين من يُعز، وقد يكون بمعنى الشدة والقوة، ومنه عز يعَز بفتح العين، وقد يكون بمعنى نفاسة القدر، يقال منه: عز الشيء يعِز بكسر العين، فيتناول معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شيء، وأنه لا مثل له.

٧ ـ ومنها (**الباطن**) وقد ورد في الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت فاطمة رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ تسأله خادماً، فقال ﷺ لها: «قولي: اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالقَ الحب والنوى، أعوذُ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنا الدين، وأغننا من الفقر» أخرجه مسلم.

قال الحليمي في معناه: الباطن الذي لا يحس وإنما يدرك بآثاره وأفعاله،اهـ. وهذا الصفة من أجلِّ الصفات التي خالف بها جميع خلقه.

٨ ـ ومنها (**الكبير**) وهو الذي كبر وعظم عن مشابهة المخلوقين.

فهذه الأسماء الحسنى دالة على تنزُّه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة خلقه، ومن عرف الله تعالى بأسمائه وصفاته تيقَّن أن كل ما ورد من النصوص المتشابهة في الكتاب والسنة موهماً تشبيه الله بخلقه فإنها غير مراد منها ظواهرها، وإنها يجب تأويلها بما يتفق مع المحكمات، ومع ما سمى الله تعالى به نفسه من أسماء الجلال والكمال على أنك لا تجد نصّاً متشابهاً إلا وقد احتفَّت به قرائن تدلُّ على أن ظاهره غير مراد، وتنفي ما يعلق بأذهان الناس فيه من الأوهام الباطلة، أو نزل في موضوعه نصٌّ محكم يكون أصلًا ومرجعاً له.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ فإنه تعالى لما ذكر القاهر قبل لفظ الفوق دلَّ على أن المراد بالفوقية فوقية السيادة والإلَهية، ولو كان المراد فوقية الجهة لقال مثلًا: (فوق خلقه) فمن الخطأ الفاضح التمسك بلفظ الفوق وإغماض النظر عما يوضِّح المراد من سابقه ولاحقه.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ ظاهره نسبة النسيان إلى الله تعالى وهو محال عليه لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ وحيث قد دل هذا النص على استحالة النسيان على الله تعالى فينبغي أن يراد بالنسيان لازمه وهو الترك لأن من نسي شيئاً

تركه، فكون المعنى نسوا الله بأن أغفلوا ذكره فتركهم من رحمته وفضله وخذلهم، وعبَّر عن الترك بالنسيان على سبيل المشاكلة لوقوعه في صحبة نسيانهم، كما في قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ وقوله: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ والتفطُّن لهذه القرائن ولارتباط النصوص المحكمة بالمتشابهة أمر أعلى من الوقوف عند ظاهر النص لا يهتدي إليه إلا من آتاه الله فقهاً في القرآن، وليس العلم بمدلولات الألفاظ وحدها كافياً في هذا المقام، فقد كان الصحابة يعلمون مدلولات ألفاظ القرآن لأنها لغتهم، ولكنهم كانوا يرجعون في غوامضه ومشكلاته إلى فقهائهم كعبد الله بن عباس وعائشة وابن مسعود رضي الله عنهم وغيرهم من كبار فقهاء الصحابة ليقفوهم على مراد الله تعالى مما أشكل عليهم فهمه، وعَزَب عنهم علمه، وكانوا في ذلك متَّبعين قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾.

ولكن المجسّمة حُرموا هذا النوع من فقه القرآن الذي لا يتأتى إلا من ممارسة القرآن وتدبُّره واتخاذه واعظاً وسميراً وهادياً ومرشداً، كما جَهِلوا أسماء الله الدالة على تنزهه عن مشابهة خلقه، فانبهمت عليهم معاني الآيات والأحاديث المتشابهة، فتاهوا في مهامه الحَيْرة، وزلت أقدامهم وهم لا يشعرون.

خطأ المجسّمة في فهم القرآن لجهلهم بالبيان

وبعد: فقد دلَّ المجسمة بجمودهم على ظواهر المتشابهات، وعدم ردها إلى المحكمات على أنهم لم يتذوَّقوا طعم بلاغة

القرآن، ولم يعرفوا مناهج البيان، ذلك أنَّ القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾.

وقد أقام الله تعالى الحجة في آيتين من كتابه على أنه لا دخل فيه لألسنة الأعاجم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾.

ومعنى ذلك أن القرآن الكريم نزل في أسلوبه ومفرداته على المعهود من لسان العرب، وأنه لا يمكن فهمه إلا من جهة لسانها، وما تعرف من معانيه، وللعرب مناهج واسعة في التعبير عن مرادها، فتارة يخاطبون باللفظ يريدون بحقيقته، وتارة يتجوزون به عن معنى آخر إذا دلَّت القرائن على استحالة الحقيقة، وتارة يجعلونه كناية عن معنى ومن لوازم معناه الحقيقي، ويعرف ذلك بدلالة السوابق واللواحق والسياق، أو بأدلة أخرى منفصلة، وتارة يخاطبون باللفظ لا يستقيم معناه إلا بتقدير محذوف يفصح عن المراد، وتارة يخاطبون بالعام يريدون به عمومه، أو يريدون به الخاص، أو العام من وجه والخاص من وجه آخر، إلى غير ذلك مما لا يتَّسع به هذا المقام[1] وكل ذلك معروف عند العرب لا يرتابون فيه هم ولا من تعلق بعلم كلامهم، ومن ارتاب في شيء من ذلك فقد حكم على نفسه بالجهل الفاضح بلسان العرب.

---

(١) من أراد التوسع في هذا البحث فليرجع إلى رسالة الإمام الشافعي رضي الله عنه في «الأصول» فهو أول من تكلم فيه، وإلى الجزء الثاني من كتاب «الموافقات» للأستاذ أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله تعالى.

والمقصود من ذلك أن معرفة لسان العرب ومذاهب بيانها وأساليب خطابها أمر لا بد منه لمن أراد فهم القرآن الكريم والخوض في تفسيره، وحيث إن القرآن الكريم عربي فهو يتنزل في أساليبه وألفاظه على المعهود من لسان العرب ومذاهبها البيانية، فتجد فيه اللفظ يراد به حقيقته كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وتجد فيه اللفظ لا يتبين المراد منه إلا بتقدير محذوف مطوي على سبيل الإيجاز، وذلك المحذوف قد يدل عليه العقل، وقد يدل عليه السياق، وقد يدل عليه الشرع، ولذلك أمثلة كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ والتقدير حرم عليكم أكل الميتة، لأن التحريم لا يتعلق بالأعيان وإنما يتعلق بأفعال المكلفين.

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ أي نكاح أمهاتكم ونظير ذلك قوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ وقوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ تقديره إن ناقض العهد كان مسئولًا لأن السياق يدل على أنَّ المسئول ناقض العهد لا العهد، أو إن وفاء العهد كان مسئولًا أي مطلوباً من المكلفين.

ومنها قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ دلَّ

العقل على أنّ في الكلام حذفاً لأن الطلب إنما يتعلق بالأفعال لا بالأعيان، ودلَّ الشرع على أن الطلب متعلق بصلتهم، لأنّ رسول الله ﷺ قال لأسماء رضي الله عنها لما سألته عن صلة أمها وهي مشركة فقال لها: صلي أمك، فعلى هذا يكون التقدير لا ينهاكم الله عن صلة الذين لم يقاتلوكم في الدين وإنما ينهاكم عن صلة الذين قاتلوكم فيه.

ومنها قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تقديره لمتنني في مراودته لأن اللوم لم يتعلق بشخصه بل بمراودتها له.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ تقديره: فأتاهم عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ تقديره: هل ينتظرون إلا أن يأتيهم عذاب الله في ظلل من الغمام لأن أدلة الشرع والعقل متضافرة على استحالة الإتيان الحسي على الله تعالى، لأنه من سمات الحوادث، والآيات التي قبلها تدل على ذلك المحذوف لأن الله تعالى نهى قبلها عن اتباع خطوات الشيطان، ثم أنذر من يتَّبع خطواته في هذه الآية بالعذاب يأتيه من موطن الأمن والرجاء.

ومن ذلك قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به» تقديره: كنت حافظ سمعه.. إلخ. لاستحالة كون الله تعالى عضواً من أعضاء الإنسان.

ولو ذهبنا نستقصي أمثلة الحذف في القرآن الكريم والسنّة لطال بنا القول وخرجنا عن حد الإيجاز وفيما تقدم ذكره من

الأمثلة دلالة كافية على أن القرآن الكريم جاء على نهج البيان العربي في الإيجاز وحذف ما تدل الدلائل على تقديره، وذلك يدل على أن الجمود على منطوق الألفاظ منشؤه الجهل الفاضح بسَعَة لسان العرب ومذاهبها البيانية، وقد جهل المجسِّمة ذلك فتورطوا في بعض آيات القرآن الكريم تورطاً حاد بهم عن سنن الصواب في فهمها، كما يتبين ذلك من قولهم في نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

وإنك لتجد في القرآن الكريم اللفظ يتجوَّز به عن معنى آخر إذا وجدت القرينة الصارفة له عن الحقيقة، وقد يكون التجوز في المفرد حرفاً كان أو فعلًا أو اسماً، وقد يكون التجوز في المركب، وأمثلة ذلك في القرآن الكريم أكثر من أن تحصى في مقال، وسنذكر لك طرفاً منها بقدر ما يتعلق بموضوعنا.

فمن أمثلة التجوز في الحرف التجوز في (على) فإنها حقيقة في استعلاء جرم على جرم نحو: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ ثم يتجوّز بها عن الثبوت والاستقرار كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

ومنها التجوُّز في (هل) فإنها وضعت للاستفهام، ويتجوز بها عن الأمر والنهي والتقرير مثال التجوز بها عن الأمر قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾، وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي انتهوا واشكروا وادَّكروا.

مثال التجوز بها عن النفي قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ أي ما ترى لهم من باقية، وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي ما يهلك إلا القوم الفاسقون، وقوله: ﴿هَلْ

جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ أي ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، وقوله ﷺ: «هل أنت إلا أصبع دميت».

ومثال التجوز بها عن التقرير قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾، وقوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾.

وأما التجوز في الأفعال فكثير في الكتاب العزيز، ومن أمثلته التجوُّز بالماضي عن المستقبل لتنزيل المستقبل منزلة الماضي في التحقق، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا﴾ وقوله جلَّ ذكره: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ فإن النداء في الآيات الثلاث مستقبل لأنه سيكون في يوم القيامة، ولكنه لما كان متحققاً مقطوعاً بحصوله لإخبار الله تعالى به نزل في تحققه منزلة الماضي فعبر عنه بصيغة الماضي.

ومن أمثلته التجوز بالمستقبل عن الماضي، كقوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ﴾ وقوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾ وقد مضى السؤال قبل نزول الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ وقد مضت الرؤيا، وأمثلة هذا النوع أكثر من أن تحصى.

وأما التجوز في الأسماء فكثير أيضاً، وسنذكر لك بعض أمثلته، فمن أمثلته التجوز بالنور عن الهدى، وبالظلمات عن الضلالات، مثل قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

ومنها التجوز عن المؤمنين بالأحياء، وعن الكافرين بالأموات، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾.

ومنها التجوز بالميزان عن العدل نحو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

ومنها التجوز في تسمية الشيء بما يؤول إليه أمره، نحو قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنباً لأن الخمر لا يعصر.

وإنك لتجد في القرآن الكريم والسنّة المطهرة، الكنايات البديعة التي تأخذ بالألباب، والكناية من أجلّ فنون البيان العربي، فمن كنايات القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي ندموا على ما فعلوا غاية الندم، فجعل ذلك كناية عنه لأنَّ النادم المتحسّر يعض يده غماً فتصير يده مسقوطاً فيها.

ومن الكنايات البليغة في الحديث ما جاء في حديث أم زرع من قول بعض النسوة تصف زوجها: «زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد» فكنَّت بالجملة الأولى عن شرفه ورفعة حسبه، وبالثانية عن طول قامته، وبالثالثة عن كرمه، والرابعة عن منزلته في قومه وكونه مرجع الرأي فيهم.

إذا علمت ذلك، وتبيَّن لك أن القرآن الكريم نزل على المعهود من أساليب العرب ومذاهبها البيانية، وأن منه الحقيقة والمجاز والكناية، وغير ذلك من ألوان البيان وأن بعض ألفاظه قد تدلُّ القرائن على أن المراد منها غير معانيها الوضعية سواء أكانت القرائن لفظية أم معنوية أم نصوصاً أخرى تفسر المراد مما أشكل

ظاهره، فاعلم أن الآيات المتشابهات التي ضلَّ المجسِّمة في فهمها لكون ظواهرها توهم تشبيه الله تعالى بخلقه لم تخرج عن كونها كلاماً عربياً جارياً على نهج البيان العربي، وحيث كانت ظواهرها توهم خلاف ما دلت عليه محكمات القرآن الكريم، فهي غير مراده قطعاً بإجماع أهل العلم من السَّلف والخلف، بل هي إما مجازات وإما كنايات عن معان تليق بكمال قدس الله تعالى.

ومن الإسراف في الخطأ حملها على معانيها الوضعية، غير أن السلف الصالح رضي الله عنهم وهم أهل اللسان، وأعلم الناس بمرامي القرآن أمسكوا عن تخريجها على مقتضى البيان العربي ورعاً منهم، واحتياطاً للدين كما قلنا غير مرة إذ كانوا يفهمون ما ترمي إليه إجمالًا من بيان عظمة الله تعالى، ولم تكن البدع الضالة قد نجمت في زمانهم، فلم يكونوا في حاجة إلى بيانها تفصيلًا، فلما تغيَّر الزمن، وتكدَّر صفو الإسلام بظهور المبتدعة من ظهور الأهواء، وجد العلماء أنفسهم أمام فتنة عمياء إن لم يقضوا عليها القضاء المبرم فإنها توشك أن تضل ضعاف العقول من المسلمين عن سواء السبيل، فلم يكن لهم مندوحةً عن تأويلها وفاقاً لنظائرها من المحكمات، ليقتلوا فتنة المبتدعين وهي وليدة في مهدها قبل أن يشتد ساعدها، ويعظم خطرها، فجزاهم الله عن دينه وعنا خير الجزاء.

ولكن المجسِّمة ـ هداهم الله ـ جهلوا كل ذلك أو تجاهلوه لأغراض في نفوسهم، فجمدوا على ظواهر المتشابهات جموداً حال بينهم وبين فهمها على الوجه الصحيح، فارتكسوا في أوحال التجسيم الذي خالفوا به العقل والفطرة واللغة والدين، وليتهم

جعلوا معتقداتهم وقفاً على أنفسهم ولم يحملوا منها إلى الناس بضاعة مزجاة بائرة، إذاً لأراحوا الناس من شرِّهم، ولكن أبى لهم فساد الطوية إلا أن يسمِّموا أفكار الناس بترهاتهم، فأخزاهم الله وهم لا يشعرون.

وسنذكر لك تباعاً تأويل بعض ما أخطأوا فيه من الآيات لتكون على بينة منه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ جاءت هذه الآية عقب قوله تعالى في محاجّة المشركين: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.. إلخ. والمعنى ألهم شركاء يوافقونهم في اعتقادهم أنا نجعل المسلمين كالمجرمين يوم القيامة في الجزاء؟ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين في دعواهم يؤيدونهم، يوم يكشف عن ساق أي يوم يعظم الخطب ويشتدُّ الأمر في موقفهم للحساب والجزاء يوم القيامة على ما افتروه على الله تعالى من أحكام تأباها حكمته وعدله، كاعتقادهم أنه يسوي المجرمين بالمسلمين في الجزاء، فالكشف عن الساق مَثَل في عِظَم الخطب وشدَّة الأمر، وأصله تشمير المخدَّرات عن سُوقهن في الهرب، فإنهنَّ لا يفعلن ذلك إلا إذا عظم واشتد الأمر، ثم صار مثلًا في الشدة يستعمل بحيث لا يتصور ساق بوجه ما كقول حاتم:

أخو الحرب إن عضَّت به الحرب عضَّها

وإن شمَّرت عن ساقها الحرب شمَّرا

وإلى نحو هذا ذهب مجاهد وإبراهيم النخعي وعكرمة، وقد روي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرج عبد بن حميد

وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن طريق عكرمة عن ابن عباس أنه سُئِل عن ذلك فقال: «إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب» والروايات عنه رضي الله عنه في هذا المعنى كثيرة، وهو ترجمان القرآن ومن أعلام البيان، فقوله الفَصْل في هذا المقام.

وعلى هذا فليس في الآية ما يدل على أنَّ الله تعالى له ساق كما زعمت المجسمة حيث قالوا: إن المراد بالساق ساق الرب.

وقد أنكر ذلك سعيد بن جبير رضي الله عنه إنكاراً شديداً، أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أنه سُئل عن الآية فغضب غضباً شديداً وقال: «إن أقواماً يزعمون أن الله سبحانه يكشف عن ساقه، وإنما يكشف عن الأمر الشديد». اهـ.

وأنت تعلم أن حمل الآية على هذا المعنى الذي زعموه غير صحيح لاستحالة ذلك على الله تعالى كما دلَّت عليه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا التي هي صريحة في تنزّهه تعالى عن الجوارح لأن ذلك يستلزم كونه شبيهاً بخلقه، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي تعاظم وتعالى وتقدس وتنزَّه مالك الملك عن مشابهة خلقه. وإذا كان معنى الآية على الوجه الذي زعمته المجسّمة غير سديد ولا صحيح فينبغي أن نحمل على أن كشف الساق مثل في عِظَم الخطب وشدة الهول كما أسلفنا.

ومن عجب أن يذهب المجسمة هذا المذهب الغريب في تفسير الآية الكريمة مع أن مثل هذا التعبير وَرَدَ في الفصيح من

كلام العرب حيث لا يعقل وجود الساق، من ذلك قول الشاعر يصف شدة الحرب:

كَشَفَتْ لهم عن ساقها
وبدا من الشرِّ الصُّراح

وقوله الآخر:

قد شمَّرت عن ساقها فشدُّوا
وَجَدَّت الحربُ بكم فجدُّوا

أتراهم يثبتون للحرب ساقاً كشفت عنها للمحاربين؟ أم يعقلون أن ذلك مثل في شدتها، وأنه لا ساق للحرب، كما أنَّ الشرَّ ليس له ناجذان في قول الشاعر:

قومٌ إذا الشر أبدى ناجذيه لهم
طاروا إليه زرافات ووحدانا

كما أنه لا أظفار للمنية في قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنيَّة أنشبت أظفارها
ألفَيت كل تميمة لا تنفع

كما أنه لا جناح للذل في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ وإنما هو كناية عن إلانة الجانب والتواضع للوالدين، أو استعارة بالكناية في الذل وإثبات الجناح له تخييل.

كما أنه لا يد للشمال في قول لبيد:

وغداة ريح قد وزعت وقرة
قد أصبحت بيد الشمال زمامها

كما أن القرآن الكريم ليس له يدان في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ وإنما التعبير بما بين يديه كناية عما سبقه وتقدمه من الكتب السماوية، ولا أحسب المجسمة يخالفون العقل فيثبتون للقرآن يدين، كما أنه لا يد للعذاب في قوله ﷺ في إنذار قريش: فإني ﴿نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

كما أنَّ النجوى ليس لها يدان في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ وإنما المعنى فتصدقوا قبلها فهذه طائفة من الكلام البليغ لا يصحُّ حمل الأعضاء المذكورة فيها على معانيها الحسيَّة التي لا يعقل المجسمة غيرها وإنما هي مجازات أو كنايات عن معانٍ يقتضيها سياق الكلام، وشرحها يحتاج إلى إطالة لا يتَّسع لها المقام، وأهل العلم باللسان العربي يفهمون ذلك كله، ويذوقون معناه، ولا يحتاجون إلى مزيد بسط وبيان، وقد سقنا لك تلك الشواهد الكثيرة من القرآن الكريم ومن الحديث ومن الشعر البليغ لتعلم حق العلم أنه لا يلزم من التعبير بالجوارح إثباتها، وأن للعرب فنوناً في التعبير عن مرادها لا تسمو إليها عقول الجامدين.

وصفوة القول: أن معنى الآية مع التي قبلها، هل لهؤلاء المشركين الذين نسبوا إلى الله حكماً تأباه حكمته وعدله فزعموا أنه يسوي يوم القيامة في الجزاء بينهم وبين المسلمين، هل لهم شركاء يوافقونهم على هذا الزعم السخيف الذي لا يقبله عقل، ولا يؤيده نقل، بل يرده الله على زاعميه بأقوى رد وأوضح برهان، فليأتوا بشركائهم ليؤيدوهم يوم يعظم الخطب ويشتد الأمر

إذا وقفهم الله تعالى للحساب العسير يوم القيامة، ودعاهم إلى السجود توبيخاً وتعنيفاً لهم على تركهم إياه في الدنيا، وتحسيراً لهم على تفريطهم فيه وآجالهم ممدودة، وقواهم موفورة فلا يستطيعون السجود لزوال قدرتهم عليه، وفي ذلك دلالة على أنهم يقصدونه فلا يتأتى منهم.

والآية الكريمة على هذا الوجه السديد إنذارٌ شديد للكافرين الذين نسبوا إلى الله تعالى ما تأباه حكمته وعدله، وهي واضحة كل الوضوح، وليس فيها أدنى لبس ولا غموض، وإنها لتريك صورة من قوة إنذار القرآن الكريم الذي يهلع له القلب وتتجافى منه الجنوب عن المضاجع في أسلوب رصين هو آية في الإعجاز.



٥ ــ المجسمة والمشبهة

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

أخرج البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾. عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فتقول قط قط» أخرجه البخاري بهذا اللفظ من رواية شعبة.

وفي رواية أبي سعيد: «حتى يضع ربُّ العزة فيها قدمه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم(١)، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذِّب بك من أشاء من عبادي، ولكلٍّ واحدةٍ منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رِجْله فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأما

---

(١) أي الضعفاء في أعين المتكبرين لتواضعهم واتباعهم الحق، وإيمانهم بالله وخضوعهم له، وإن كانت منزلتهم رفيعة عند الله تعالى لما حباهم من كرامته، ولما منحهم من توفيقه وهدايته.

الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقاً» أخرجه البخاري، وقد روى هذان الحديثان من طرق أخرى باختلاف يسير في اللفظ.
وقد كانت عادة السلف الصالح رضي الله عنهم أن يرووا تلك الأحاديث ولا يريغون لها المعاني وَرَعاً منهم واحتياطاً للدين كما قلنا غير مرة، وإمساكاً عن الخوض فيما لم يكلفنا الله تعالى بالخوض فيه، مع اعتقاد التنزيه وتفويضِ المراد منها إلى علَّام الغيوب، وعدم الجمود على ظواهر ألفاظها، وكان اهتمامهم موجَّهاً إلى ما أعدَّهُمُ الله تعالى له من الدعوة إلى دينه، والجهاد في سبيله لإعلاء كلمته، فلما انقضى عصرُهُم الذهبي الذي هو أنْضَرُ عصور الإسلام بكلٍّ ما فيه من خير، ودخل في الإسلام طوائف شتى من أجناس مختلفة تحمل في أدمغتها أثارة مما كانت عليه من معتقداتها، ولا تحسن فهم لغة القرآن وسنّة خير الأنام، انقسم الناس إذ ذاك إزاء هذه الأحاديث إلى ثلاث فرق:

فرقة لم ترفع بهذه الأحاديث رأساً فكذبتها وطعنت في رواتها من الأئمة الأعلام.

وفرقة أخرى ذهبت في تحقيق الظاهر منها مذهباً أفضى بها إلى التشبيه، إذ حملتها على معان حسيَّة يتنزَّه الله تعالى عن نسبتها إليه.

وبقي أهل السنة والجماعة وسطاً بين الفريقين، فلم ينكروا ما صحَّ من الروايات بنقل الثقات العدول الضابطين كالفريق الأول، ولم يأخذوا بظواهرها التي تدلُّ النصوص المحكمة وقواعد الدين القطعية وإجماع السلف على أنها غير مرادة كالفريق الثاني، بل خرَّجوها على معانٍ منطبقة على أصول الدين، ومذاهب البيان

العربي الرصين، وسلكوا في تفسيره مسلك التحقيق العلمي الذي يجلِّي غوامضَها ويظهر خفاياها على ضوءِ ما دلت عليه قواعد الدين، ومحكمات القرآن المبين، وما نقلوه من أقوال الصحابة والتابعين، رضي الله عنهم أجمعين، فأدُّوا بذلك للمسلمين خدمة يتضاءل دونها الشكر، ويقصُرُ عنها الثناء، فجزاهم الله عن دينه وعن المسلمين خير الجزاء.

وأمثل ما يقال في تفسير الحديثين أن القدم أو الرجل في قوله ﷺ: «**حتى يضع فيها قدمه**». وفي الرواية الأخرى: «**رجله**» ليس المراد بها الجارحة المخصوصة المعروفة التي يمشي بها الإنسان والحيوان لأنها محالة على الله تعالى الواحد الأحد السبُّوح القدُّوس الكبير المتعال، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وإنما التعبير بها ورد مورد المثل في قمع النار وزجرها عن طلب المزيد والتسكين من غربها، كما يقول القائل للشيء يريد محوه وإبطاله: جعلته تحت رجلي، ووضعته تحت قدمي.

ومن ذلك قوله ﷺ في خطبته عام الفتح: «ألا إن كل دم ومأثرة في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين إلا سقاية الحاج وسدانة البيت» يريد محو تلك المآثر وإبطالها.

وما أكثر ما تضرب العرب في كلامها الأمثال بأسماء الأعضاء وهي لا تريد أعيانها، كما تقول في الرجل يسبق منه القول أو الفعل ثم يندم عليه: قد سقط في يده، أي ندم، وكقولهم: رغم أنف الرجل إذا ذل، وعلا كعبه إذا جل، وَتَرِبَتْ يداه في الدعاء عليه بالفقر، وفلان له قدم في الخير، أي سابقة، وقدح في ساقه إذا عمل في شيء يكرهه، وكشفت الحرب عن

ساقها وكشرت عن نابها إذا اشتدت، وجعلت كلام فلان دبر أذني، طرحته وأهملته، ونحو ذلك من ألفاظهم الدائرة.

وكقول امرئ القيس في وصف الليل:

فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازاً وناءَ بكلكل

وليس هنا صلب ولا عجز ولا كلكل، وإنما هي أمثال ضربها لما أراد من بيان طول الليل، واستقصاء الوصف له، فقطع الليل تقطيع ذي أعضاء من الحيوان وقد تمطى عند إقباله، وامتد بعد بدوام ركوده، وطول ساعاته، وعلى هذا فقوله ﷺ: «حتى يضع قدمه». وفي الرواية الأخرى: «حتى يضع رجله» لا يراد به إثبات القدم والرجل لله سبحانه وتعالى كما قالت المجسّمة، وإنما هو مَثَل لما أراد من زجر النار وتسكين غربها لتكفَّ عن طلب المزيد، وذلك هو ما ذهب إليه الفحول المحققون من علماء اللغة والبلاغة.

قال العلامة الزمخشري في «أساس البلاغة»: ومن المجاز «فيضع قدمه عليها» أي فيسكنها ويكسر سَوْرتها كما يضع الرجل قدمه على الشيء المضطرب فيسكنه.

وقال في «الفائق»: «وضع القدم على الشيء مثل للردع والقمع، فكأنه قال يأتيها أمر الله فيكفها عن طلب المزيد فترتدع».

وللحديث تأويل آخر، وهو أن يراد بالقدم من قدمهم الله للنار من أهلها، فيقع بهم استيفاء عدد المعذبين فيها، وكل شيء

قدمته فهو قدم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ أي لهم ما قدموه من الأعمال الصالحة.

وقد روى هذا المعنى عن الحسن كما قال البيهقي في «الأسماء والصفات»، والمروي عنه ذكره ابن سيده في كتاب «المخصص» فقال: «حتى يضع فيها قدمه».

روي عن الحسن وأصحابه أنه قال حتى يجعل الله فيها الذين قدمهم لها من شرار خلقه، فهم قدم الله للنار، كما أنَّ المسلمين قدمه إلى الجنة،اهـ.

والحسن رضي الله عنه من أكابر علماء السلف، وقد نحا هذا المنحى في تأويل الحديث ليرينا أن في لسان العرب ولغتها التي وسعت كتاب الله متَّسعاً لتأويل ما أشكل علينا ظاهره من متشابهات النصوص.

فتبيَّن من هذا أن للقدم تأويلين: أحدهما أنه مثل في الردع والزجر، والآخر أن المراد به من قدمهم الله للنار من أهلها، وكلا التأويلين صحيح، وإن كان الأول أقعد في البلاغة وأوفق بمذاهب العرب في التمثيل بالأعضاء لما تريد من المعاني.

وقد ذكر العلامة ابن الأثير التأويلين في كتابه «النهاية في غريب الحديث» فقال رحمه الله: **«حتى يضع الجبار فيهم قدمه»** أي الذين قدَّمهم لها من شرار خلقه، فهم قَدَمُ الله للنار، كما أن المسلمين قدمُه للجنة، والقدم: كلُّ ما قدمت من خير أو شر، وتقدَّمت لفلان فيه قَدَمٌ: أي تقدُّم في خير وشر. وقيل: وضع القدم على الشيء مَثَلٌ للردْع والقمع، فكأنه قال: يأتيها أمر الله

فيكفها عن طلب المزيد، وقيل: أراد به تسكين فورتها، كما يقال للأمر تريد إبطاله: وضعته تحت قدمي، ومنه الحديث: «ألا إن كلَّ دم ومأثُرةٍ تحت قَدَميَّ هاتين» أراد إخفاءها وإعدامها وإذلال أمر الجاهلية ونقض سنتها(١).

وهذان التأويلان يجريان في الرواية الأخرى التي فيها: «حتى يضع رجله» فإما أن يحمل هذا التعبير على أنه مثل لردع النار وزجرها عن طلب المزيد وتسكين فَوْرتها، وإما أن يراد بالرِّجْل الجماعة من الناس الذين استحقوا بأعمالهم دخول النار على سبيل الاستعارة، وبيان ذلك أن الرِّجْل ـ بكسر الراء وسكون الجيم ـ في لغة العرب اسم لجماعة الجراد، ومنه الحديث: «كأن نبلهم رجل جراد» ومنه حديث ابن عباس: «أنه دخل مكة رِجْل من جراد فجعل غلمان مكة يأخذون منه فقال: أما إنهم لو علموا لم يأخذوه» كره ذلك في الحرم لأنه صيد فالرِجل في الأصل اسم لجماعة الجراد، كما أن السرب اسم لجماعة الظباء، والعانة اسم لجماعة الحمير، ثم استعير للجماعة من الناس على سبيل التشبيه، والكلام المستعار والمنقول عن أصل وضعه كثير، والأمر فيه عند أهل اللغة مشهور.

وعلى ذلك يكون المعنى: لا تزال جهنم تطلب المزيد حتى يضع الله فيها الجماعة من الناس الذين استوجبوا بأعمالهم دخولها، وسبق في علمه بمقتضى عدله وحكمته أنهم من أهلها، والإضافة لاختصاصه تعالى بخلقهم والتصرف في أمرهم.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين ابن الأثير ٤: ٢٥.

وأنت ترى من هذا البيان أن الحديث الشريف لا إشكال فيه ولا دلالة فيه على ثبوت الرجل لله سبحانه كما تقول المجسمة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» هذين التأويلين في مقدمة ما ذكره من أقوال أهل العلم، فقال: المراد بوضع القدم إذلال جهنم، فإنَّها إذا بالغت في الطغيان وطلب المزيد أذلها الله تعالى فوضعها تحت القدم، وليس المراد حقيقة القدم فإنَّ العرب تستعمل ألفاظ الأعضاء ولا تريد أعيانها.

كقولهم رَغم أنفه، وسقط في يده، وقيل المراد بالقدم الفرط السابق، أي يضع الله فيها ما قدمه لها من أهل العذاب.

فإذ تأمَّلت ما قاله الثقات من علماء اللغة وشراح الحديث في تأويله تبيَّن لك أنَّ الحديث لا دلالة فيه أصلًا على ثبوت الرِّجْل لله تعالى كما قالت المجسِّمة، وأنهم ما وقعوا في هذا الخطأ الفاحش إلا من جمودهم على ظواهر الألفاظ مع غفلتهم عن مألوف العرب في استعمالها، وعُرفهم في التخاطب بها.

ومن هنا تعلم أنه لا بد من الرسوخ في اللغة والبيان لمن أراد الوصول إلى الصواب والتحرُّز عن الخطأ في فهم السنة والقرآن، ورضي الله عن ابن عباس إذ يقول: «إذا أشكل عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشعر فإنه ديوان العرب»، وروي مثل ذلك عن عمر رضي الله عنهما، ومرادهما التنبيه على أن التبريز في الأدب العربي وفي فقه اللغة والبيان أكبر معين للباحث على فهم نصوص الكتاب والسنة فهما صحيحاً لا لبس فيه ولا انحراف عن سنن الحق، والحمد لله على توفيقه، وصلى الله وسلم على صفوة خلقه.

المحتوى

الحجة الدامغة

لشبهات المجسمة الزائغة